

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢١

شَرْحُ

بِمَحَبَّةِ الطَّالِبِ

فِي آدَابِ الطَّلَبِ

صَنَّفَ الْكِتَابَ وَأَتْلَى مَرْحَمَةً مَعَالِي الشَّيْخِ الدَّكْتُورِ
صَالِحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمْدٍ الْعُصَيْمِيِّ

عُضُوهُهُنَّ كِبَارُ الْأَعْلَمَاءِ وَالْمَدْرَسِ بِالْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ
غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِأَخِيهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

النَّسْخَةُ الْأُولَى

الكتاب
الأول

المستوى الثاني
في آداب الطلب

السنّة
الخامسة
١٤٣٧ / ١٤٣٨

شَيْخُ
بَهْجَةُ الطَّلَبِ
فِي آدَابِ الطَّلَبِ

مِنْ لَيْلَةِ شَرْوَحَاتِ تَطَوُّرَاتِ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ ⑥١

شَرْحُ

بِمَجْمَعِ الطَّلَبِ

فِي آدَابِ الطَّلَبِ

صَنَّفَ الْكَتَابَ وَأَمْلَى شَرْحَهُ مَعَالِي الشَّيْخِ الدَّكْتُور

صَالِحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمْدٍ الْعُصَيْمِيِّ

عُضُوهُنَّ كِبَارُ الْعُلَمَاءِ وَالْمَدْرِسُ بِالْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ
غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِأَسَاتِيذِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

النَّسْخَةُ الْأُولَى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل للعلم أصولاً، وسَهَّلَ بها إليه وُصُولاً، وأشهد ألاَّ
إلهَ إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسوله صَلَّى اللهُ عليه
وعلى آله وصحبه مَا بُيِّنَتْ أصول العلوم، وسَلَّمَ عليه وعليهم مَا أُبْرَزَ الْمَنْطُوقُ
منها والمفهومُ.
أَمَّا بَعْدُ:

فَهَذَا شَرْحُ (الكتابِ الأوَّلِ) مِنْ (المُسْتَوَى الثَّانِي) مِنْ بَرْنَامَجِ (أُصُولِ
العلمِ) فِي (سِتِّهِ الْخَامِسَةِ)؛ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَأَلْفٍ، وَثَمَانِيَةٍ وَثَلَاثِينَ
وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَأَلْفٍ. وَهُوَ كِتَابُ «بَهْجَةُ الطُّلُبِ فِي آدَابِ الطَّلَبِ»، لِمَصْنُفِهِ صَالِحِ
بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمْدٍ الْعَصِيمِيِّ.





قَالَ النَّازِمُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَهُ الْإِحْكَامُ ثُمَّ الصَّلَاةُ بَعْدُ وَالسَّلَامُ
عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ طَرًّا بِلَا تَنْهَاهِي
وَبَعْدُ ذِي أَرْجُوزَةٍ جَدِيرَةٍ بِالْحِفْظِ وَالْإِذْرَاكِ بِالْبَصِيرَةِ
لِللُّؤْلُؤِيِّ تُعْزَى أَوْ الْمَأْمُونِ وَنَصُّهَا الْمَجْلِي لِلْعُيُونِ



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

أَبْتَدَأَ النَّازِمُ وَفَّقَهُ اللَّهُ مِنْظُومَتَهُ بِالْبِسْمَلَةِ، ثُمَّ ثَنَّى بِالْحَمْدَةِ، ثُمَّ ثَلَّثَ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقْرُونَةً بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى آلِهِ.
وَهَؤُلَاءِ الثَّلَاثُ مِنْ آدَابِ التَّصْنِيفِ اتَّفَاقًا؛ فَإِنَّ مِنْ مُسْتَحْسَنَاتِ الْآدَابِ فِي أَبْتَدَاءِ
التَّصَانِيفِ أَنْ يُقَدَّمَ فِي صَدْرِهَا الْبِسْمَلَةُ، ثُمَّ يُثْنَى بِالْحَمْدَةِ، ثُمَّ يُثَلَّثَ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ
عَلَى النَّبِيِّ وَعَلَى آلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.
وَأَكَّدَ النَّازِمُ الصَّلَاةَ عَلَى الْآلِ بِقَوْلِهِ: (طَرًّا)؛ أَي: جَمِيعًا؛ تَحْقِيقًا لَشُمُوهَا آلَ النَّبِيِّ
كُلَّهُمْ؛ وَهُمْ: بَنُو هَاشِمٍ الْقُرَشِيُّونَ وَأَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
فَاسْمُ (آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَجْمَعُ شَيْئَيْنِ:
أَحَدُهُمَا: مَنْ نَسَلَ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَاشِمٍ.
وَالْآخَرُ: أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَلَوْ كُنَّ مِنْ غَيْرِ بَنِي هَاشِمٍ أَوْ قُرَيْشٍ.

وَالْمَخْصُوصُونَ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ مِنَ الْآلِ: هُمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ.
وَجَعَلَ النَّازِمُ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ مَمْدُودَةً غَيْرَ
مَحْدُودَةٍ لِقَوْلِهِ: (بَلَا تَنَاهِي)؛ أَي: بِلا حَدٍّ تَنْتَهِي إِلَيْهِ.

وَالْمَطْلُوبُ شَرْعًا: الْإِكْتَارُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ.
وَالْمُرَادُ بِ(الْإِكْتَارِ): غَلَبَةُ الْأَمْرِ عَلَى الْعَبْدِ حَتَّى يَتَمَيَّزَ بِهِ، فَالْمُكْثَرُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ
عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ هُوَ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى لِسَانِهِ ذِكْرُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ
وَعَلَيْهِمْ.

وَرُويَتْ أَحَادِيثُ فِي جَعْلِ ذَلِكَ عَشْرًا، أَوْ مِائَةً، أَوْ خَمْسِينَ، أَوْ أَلْفًا؛ وَكُلُّ تِلْكَ
الْأَحَادِيثِ لَا يَثْبُتُ مِنْهَا شَيْءٌ، فَلَا أَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي تَقْدِيرِ عَدَدٍ يُصَلَّى وَيُسَلَّمُ بِهِ عَلَى
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضِعَافٌ لَا يَصِحُّ مِنْهَا شَيْءٌ.

وَأَسْمُ (الْإِكْتَارِ) يَحْصُلُ بِغَلَبَتِهَا عَلَى لِسَانِ الْعَبْدِ؛ فَمَثَلًا: الْمَأْمُورُ بِهِ مِنَ الْإِكْتَارِ مِنَ
الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ وَيَوْمَهَا لَا يَحْصُلُ بِعَدَدٍ مُعَيَّنٍ بِأَنْ
تُصَلِّيَ عَشْرًا أَوْ خَمْسِينَ أَوْ مِائَةً أَوْ أَلْفًا، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ بِأَنْ تَغْلِبَ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى
لِسَانِكَ فِي أَحْوَالِكَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَيَوْمَهَا.

فَلَوْ قُدِّرَ أَنْ أَحَدًا صَلَّى وَسَلَّمَ قِطْعَةً مِنَ الْيَوْمِ جَلَسَ فِيهَا فَصَلَّى وَسَلَّمَ خَمْسِينَ أَوْ مِائَةً؛
فَأَسْمُ (الْإِكْتَارِ) لَا يَتَحَقَّقُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَتَحَقَّقُ بِأَنْ تَغْلِبَ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى لِسَانِهِ فِي
جَمِيعِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَيْلَتِهِ.

وَمِنْ حِسَانِ الْمَأْثُورَاتِ: مَا رَوَاهُ قَوَامُ السُّنَّةِ الْأَضْبَهَانِيُّ فِي كِتَابِ «فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ»،
عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَامَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ: كَثَرَةُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

ثُمَّ ذَكَرَ النَّازِمُ أَنَّ الْمَسْوَاقَ هُنَا مِنْ نَظْمِهِ حَقِيقٌ بِأَمْرَيْنِ، هُوَ جَدِيرٌ بِهِمَا:

أحدهما: الحفظُ للمباني.

والآخر: الفهمُ للمعاني.

في قوله:

وَبَعْدُ ذِي أَرْجُوزَةٍ جَدِيرَةٍ بِالْحِفْظِ وَالْإِدْرَاكِ بِالْبَصِيرَةِ

فقوله: **(بِالْحِفْظِ)**؛ إشارةٌ إلى حفظِ المباني.

وقوله: **(وَالْإِدْرَاكِ بِالْبَصِيرَةِ)**؛ إشارةٌ إلى فهمِ المعاني؛ لِأَنَّ الْإِدْرَاكَ حَقِيقَتُهُ: الْفَهْمُ،

وَأَلَّتُهُ: الْبَصِيرَةُ الْقَلْبِيَّةُ، فَمَنْ وَجَّهَ بَصِيرَتَهُ الْقَلْبِيَّةَ فِي وَعْيِ شَيْءٍ فَهَمَّهُ وَأَدْرَكَهُ.

وهذه المنظومةُ الَّتِي أَصْطَفَاهَا نَازِمٌ لَهَا لَتَكُونَ رَأْسَ مَا يُحْفَظُ فِي آدَابِ الطَّلَبِ مِمَّا

شَهِرَ بَعْضُ أَبِياتِهَا مُرْسَلًا، فَسَتَعَلَّمْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ أَنَّ هَذِهِ الْمَنْظُومَةَ مَمْرُوجَةٌ بَيْنَ نَظْمِ

نَازِمِهَا الَّذِي جَعَلَ لَهَا مُقَدِّمَةً وَخَاتِمَةً، مَعَ أَبِياتٍ تُنْسَبُ لغيرِهِ؛ هِيَ الْمَبْدُوءَةُ بِقَوْلِهِ:

(أَعْلَمُ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ) إِلَى تَمَامِ الْمَنْظُومَةِ؛ سِوَى الْبَيْتِ الْآخِرِ.

فَمَا بَيْنَ الْمُقَدِّمَةِ وَالْخَاتِمَةِ اخْتَلَفَ فِي قَائِلِهِ، فَعُزِّيَ إِلَى رَجُلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: اللُّؤْلُؤِيُّ؛ وَهِيَ نِسْبَةُ جَمَاعَةٍ، أَشْهَرُهُمْ: الْحَسَنُ بْنُ زِيَادِ اللُّؤْلُؤِيِّ، مِنْ فُقَهَاءِ

أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ.

وَالْآخَرُ: الْمَأْمُونُ؛ وَهُوَ لَقَبُ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَارُونَ الْقُرَشِيِّ الْمُطَّلِبِيِّ.

فَعُزِّيَتْ إِلَى هَذَا، وَعُزِّيَتْ إِلَى هَذَا، وَلَمْ يُعْلَمْ قَائِلُهَا عَلَى وَجْهِ التَّحْقِيقِ.

وَلِصَحَّةِ مَعَانِيهَا، وَلَطَافَةِ مَبَانِيهَا تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْقَبُولِ، فَتَقَادَمَ ذِكْرُهُمْ لَهَا، وَأَقْدَمَ

مَنْ ذَكَرَهَا - فِيمَا يُعْلَمُ - هُوَ: أَبُو عَمَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ»،

وَعَدَّهَا أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي آدَابِ الطَّلَبِ.

وقوله: **(وَنَصَّهَا الْمَجْلِي لِلْعُيُونِ)** مَعَ مَا بَعْدَهُ؛ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْأَرْبَعَةَ الْأُولَى لَيْسَتْ مِنَ النَّظْمِ الْقَدِيمِ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو عَمْرٍو ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَغَيْرُهُ؛ فَالْآيَاتُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي صُدِّرَتْ بِهَا الْمَنْظُومَةُ هِيَ مِنْ نَظْمِي، ثُمَّ خُتِمَتْ ببيتٍ جُعِلَ خَتَمًا لَهَا.

فَإِنَّ الْعِلْمَ خَاصَّةً وَمَا يَنْفَعُ عَامَّةً إِذَا جُعِلَ بَيْنَ مُقَدِّمَةٍ وَخَاتِمَةٍ بَانَ نَفْعُهُ، وَأَعْتَبِرْ هَذَا فِي إِنْزَالِ الْقُرْآنِ مُنْجَمًا فِي سُورٍ - أَيْ: مُفَرَّقًا فِي نَسَقِ سُورٍ -، كُلُّ سُورَةٍ لَهَا مَطْلَعٌ هُوَ فَاتِحَتُهَا، وَلَهَا مَقْطَعٌ هُوَ خَاتِمَتُهَا؛ فَإِنَّ الشَّيْءَ إِذَا جُمِعَ بَيْنَ طَرَفَيْنِ وَعِيٍّ وَأُذِرِكَ، وَمِنْهُ: الشَّعْرُ الْمُرْسَلُ، فَإِنَّهُ إِذَا أُحِيطَ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَيُرْشَدُ إِلَيْهِ كَمَلَتْ مَنْفَعَتُهُ، فَهُوَ الَّذِي حَدَا جَامِعَ هَذِهِ النَّبْذَةِ فِي هَذِهِ الْأَوْرَاقِ إِلَى تَقْدِيمِ آيَاتٍ بَيْنَ يَدَيْهَا وَخَتَمِهَا ببيتٍ وَاحِدٍ.

وَسَمَّى ذَلِكَ كُلَّهُ: «بَهْجَةُ الطُّلُبِ فِي آدَابِ الطُّلُبِ».

وَالطُّلُبُ: جَمْعُ طُلْبَةٍ؛ وَهِيَ: السَّفَرَةُ الْبَعِيدَةُ، فَإِنَّ مَنْ شَعَرَ الْعِلْمَ: الرَّحْلَةَ فِيهِ.

وَمِنْ مَبَاهِجِ الْارْتِحَالِ: التَّزَيُّنُ بِالْآدَابِ، فَمَنْ ارْتَحَلَ فِي الْعِلْمِ مُتَزَيِّنًا بِالْآدَابِ أَدْرَكَ بُغْيَتَهُ.

وَجَعَلَ النَّازِمُ هَذَا الْأَسْمَ لَهَا مَخْتُومًا بِقَوْلِهِ: (فِي آدَابِ الطُّلُبِ)؛ لِأَنَّ آخِرَ شَطْرٍ مِنْهَا هُوَ قَوْلُ نَازِمِهَا: **(فَأَفْهَمُ هَذَاكَ اللَّهُ آدَابَ الطُّلُبِ)**.



قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

أَعْلَمُ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ وَالْحِفْظِ وَالْإِتْقَانِ وَالتَّفْهَمِ



قَالَ الشَّارِحُ وَفَقَهُ اللَّهُ :

من الأصول المُعِينَةِ على حِيَازَةِ الْعِلْمِ وَجَمْعِهِ: التَّحَلِّيُّ بِشَعَارِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِمْ: (الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ)؛ أَي: بَطْلَبِهِ وَابْتِغَائِهِ، فَإِنَّ أَحَدَنَا لَا يُوَلِّدُ عَالِمًا، وَإِنَّمَا يَجْمَعُ الْعِلْمَ إِلَى نَفْسِهِ بِطَلَبِهِ وَإِحْصَائِهِ وَالتَّمَاثُلِ، وَسَعْيُهُ فِي ذَلِكَ يُسَمَّى (تَعَلُّمًا).

فَإِنَّ (التَّفْعَلَ) فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: أَسْمٌ لِمَا يُبْذَلُ فِيهِ كُفْلَةٌ؛ كَ (التَّعَلُّمِ، وَالتَّحَلُّمِ، وَالتَّكَلُّمِ)، فَإِنَّ الْإِتِّصَافَ بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَحُسْنَ الْمُنَاطِقِ وَالْكَلَامِ لَا يُحْصَلُ دُفْعَةً وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا يُكَابِدُ الْمَرْءُ مَشَقَّةً حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَطْلُوبِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ وَغَيْرِهَا.

وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ - (الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ) - رُوِيَتْ فِي حَدِيثِ مَرْفُوعٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا يَصِحُّ مِنْ طَرَفِهِ شَيْءٌ، وَثَبَتَ مَوْقُوفًا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَا يُوَلِّدُ عَالِمًا، إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ «الزُّهْدِ»، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُ النَّازِمِ: (وَالْحِفْظِ وَالْإِتْقَانِ وَالتَّفْهَمِ)؛ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ؛ فَالْمَذْكُورَاتُ مِنْ مَسَالِكِ التَّعَلُّمِ؛ فَحِيَازَةُ الْعِلْمِ وَجَمْعُهُ تَحْصُلُ بِسُلُوكِ سُبُلِ مُوَصِّلَةٍ إِلَيْهِ، مِنْ جُمْلَتِهَا: الْحِفْظُ، وَالْإِتْقَانُ، وَالتَّفْهَمُ.

وَالْمُرَادُ بِالْإِتْقَانِ: الْإِحْكَامُ، وَمُتَعَلِّقُهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ: التَّحَفُّظُ وَالتَّفْهَمُ؛ بِأَنْ يَكُونَ الْحِفْظُ مُتَقَنًا وَالفهم مُتَقَنًا، فَمَدَارُ الْعِلْمِ عَلَى التَّحَفُّظِ وَالتَّفْهَمِ.

فَإِنَّ قُوَّةَ الْعِلْمِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَصْلَيْنِ: الْحِفْظِ، وَالفهمِ، ذَكَرَهُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْحَفِيدُ، وَتَوَجَّدَ فِي

كَلَامَ غَيْرِهِ مِنْ قُدَمَاءِ فَلَاسِفَةِ الْيُونَانِ.

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُحْصِلَ الْعِلْمَ فَإِنَّهُ يَنَالُهُ بِالْحَرَصِ عَلَى حِفْظِ مَا يَرِيدُهُ مِنْهُ حِفْظًا مُحْكَمًا مُتَقَنًا، وَيَقْرُنُ ذَلِكَ بِتَفْهَمِ مَعَانِيهِ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبُلُ فِي الْعِلْمِ بِالْغَايَةِ مِنْهُ إِلَّا مَنْ أَرْتَوَى مِنْ هَاتَيْنِ السَّابِلَتَيْنِ أَكْمَلَ الْارْتَوَاءِ وَأَقْوَاهُ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَنَالُ الْعِلْمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ دُونَ الْأُخْرَى فَهُوَ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ، وَمَنْ لَمْ يَسِرْ فِيهِمَا سِيرَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ مَلاحِظَةِ الْحِفْظِ فِي زَمَنِهِ وَوَقْتِهِ، وَمَلاحِظَةِ الْفَهْمِ فِي زَمَنِهِ وَوَقْتِهِ أَضَرَّتْ إِحْدَى الْقُوَّتَيْنِ بِالْأُخْرَى.

وَقَدْ ذَكَرَ الْوَشَلِيُّ فِي «الْتَّنَاءِ الْحَسَنِ» عَنْ بَعْضِ شُرَاحِ «الرَّحَبِيَّةِ» - وَلَمْ يُسَمِّهِ - أَنَّ مَنْ لَمْ يَرِعَ الْحِفْظَ وَالْفَهْمَ كَمَا يَنْبَغِي أَضَرَّتْ إِحْدَى الْقُوَّتَيْنِ بِالْأُخْرَى.

وَهَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ فِي النَّاسِ؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَغِلُ بِالْحِفْظِ فِي غَيْرِ أَوَانِهِ وَزَمَانِهِ؛ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا، اخْتِيَارًا وَأَصْطِفَاءً، فَيَحْصُلُ لَهُ حِفْظٌ كَثِيرٌ، وَيَثْقُلُ فَهْمُهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْرُنْهُ بِالْحَالِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الْفَهْمِ.

وَيُقَابِلُهُ قَوْمٌ آخَرُونَ يُقَعِّقُونَ بِشَنْشِنَةِ الْفَهْمِ فَقَطْ، فَتَجِدُهُمْ يُرْسِلُونَ خِيَالَاتِهِمْ فِي تَفْهَمِ مَعَانِي مَا يَرِيدُونَ، فَيُثْقَلُونَ عَلَى أَذْهَانِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَمِدُّونَ تَحْقِيقَ تِلْكَ الْمَعَانِي مِنْ مَخْزُونٍ مُحْفُوظٍ، فَيَقْعُونَ فِي صَحْرَاءِ بَلَقَعٍ، يَضِيعُونَ فِيهَا فِي تَيْهِ.

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَرَقَّى فِي الْعِلْمِ وَيَنَالَهُ وَيَحْصُلُ لَهُ مَا ذَكَرَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ: (الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ)؛ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُلَاحِظَ الْحِفْظَ وَالْفَهْمَ سِيرًا فِيهِمَا بِجَادَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ، مِمَّا يُرْقِيهِ فِيهِ أَهْلُ الْعِلْمِ الْعَارِفُونَ بِهِ، وَلَنْ تُبْلَغَ الْغَايَةُ إِلَّا بِالسَّيْرِ وَفَقْ هَذِهِ السَّابِلَةِ، فَلَا تَتَعَنَّ.



قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

وَالْعِلْمُ قَدْ يُرْزَقُهُ الصَّغِيرُ فِي سِنِّهِ وَيُحْرَمُ الْكَبِيرُ
فَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ لَيْسَ بِرَجُلِيهِ وَلَا يَدِيهِ
لِسَانِهِ وَقَلْبِيهِ الْمُرْكَبُ فِي صَدْرِهِ وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَبُ



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

لَمَّا كَانَ التَّعَلُّمُ سَبِيلًا يُنَالُ بِهِ الْعِلْمُ - كَمَا ذَكَرَ النَّازِمُ فِيَمَا سَلَفَ - ؛ بَيَّنَّ هُنَا أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَتَوَقَّفُ حَصُولُهُ عَلَى عُمُرٍ دُونَ عُمُرٍ، فَيُدْرِكُهُ أَمْرِيٌّ فِي سِنٍّ وَلَا يُدْرِكُهُ آخَرُ فِي سِنٍّ أُخْرَى، بَلِ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ:

وَالْعِلْمُ قَدْ يُرْزَقُهُ الصَّغِيرُ فِي سِنِّهِ وَيُحْرَمُ الْكَبِيرُ

فَرُبَّمَا يُوَفَّقُ الصَّغِيرُ إِلَى الْعِلْمِ وَيُحْرَمُ الْكَبِيرُ، بِحَسَبِ مَا يَتَهَيَّأُ لَهُ مِنَ الْعَوْنِ عَلَيْهِ، فَيَتَرَشَّحُ لِلْعِلْمِ حِفْظًا وَفَهْمًا مَعَ مَبْتَدَأِ عُمُرِهِ، وَيَحْصُلُ لَهُ مِنَ الظَّفَرِ بِمَحْفُوظٍ وَاسِعٍ وَمَفْهُومٍ نَافِعٍ، فَيَرْجِعُ عَلَيْهِ ذَلِكَ بِحُسْنِ رِزْقِهِ فِي الْعِلْمِ.

وَرُبَّمَا يَقَابِلُهُ مَنْ هُوَ مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ فِي السِّنِّ، لَكِنْ لَمْ يُصِبْ مِنَ الْعِلْمِ شَيْئًا؛ لِتَرْكِهِ الْإِشْتَغَالَ بِهِ، فَتَقَدَّمَ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ لِإِشْتَغَالِ الصَّغِيرِ بِهِ فِي الْمَبَادِئِ.

وَإِذَا أَشْتَغَلَ الْكَبِيرُ بِالْعِلْمِ فَإِنَّهُ يُمَكِّنُهُ أَنْ يُدْرِكَهُ إِذَا تَجَرَّدَ مِنَ الشَّوَاغِلِ وَالْعَوَائِقِ وَالْقَوَاطِعِ، قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «كِتَابِ الْعِلْمِ»: «وَتَعَلَّمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِبَارًا» أَه.

فَالْتَقَدُّمُ فِي السِّنِّ لَا يَمْنَعُ نَيْلَ الْعِلْمِ حِفْظًا وَلَا فَهْمًا، وَلَكِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ لَهَجُوا بِالْمَبَادِرَةِ

إِلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ فِي مَبْتَدَأِ الْعُمُرِ؛ لِقَلَّةِ الشَّوَاغِلِ، وَقُوَّةِ الدَّاعِي إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ فِي النَّفْسِ.
فَمَنْ تَمَكَّنَ مِنْ كِبَارِ السِّنِّ مِنْ تَحْلِيصِ نَفْسِهِ مِنَ الْقَوَاطِعِ الْمُشْغَلَةِ وَالْعَوَاقِقِ الْمَانِعَةِ
مِنَ الْعِلْمِ وَسَارَ فِيهِ سَيْرًا حَسَنًا فَإِنَّهُ يُدْرِكُ مِنْهُ بُغْيَتَهُ.

وَمَحَلُّ الْعِلْمِ مِنَ الْعَبْدِ: قَلْبُهُ.

وَأَلَّةُ بَيَانِ الْعِلْمِ: لِسَانُهُ.

فَالْقَلْبُ وَعَاءُ الْعِلْمِ، وَاللِّسَانُ مِغْرَافٌ يَنْزِعُ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ النَّازِمُ:

فَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ لَيْسَ بِرَجُلِيهِ وَلَا يَدِيهِ

لِسَانِهِ وَقَلْبِيهِ الْمُرْكَبُ فِي صَدْرِهِ وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَبُ

وُسَمِّي الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ: (الْأَصْغَرَانِ)؛ لِضَالَةِ حَجْمِهِمَا، وَصِغَرِ قَدَرِهِمَا مِنَ الْبَدَنِ،
فَهُمَا بَضْعَتَانِ صَغِيرَتَانِ مِنْ بَدَنِ الْإِنْسَانِ.

وَقَوْلُهُ: (الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ) مَثَلٌ سَيَّارٌ؛ مَعْنَاهُ: أَنَّ الْمَرْءَ يَعْلُو الْأُمُورَ وَيَضْبِطُهَا بِقَلْبِهِ
وَلِسَانِهِ، ذَكَرَهُ الزَّيْدِيُّ فِي «تَاجِ الْعُرُوسِ».

وَقَوْلُهُ: (وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَبُ)؛ أَيُّ: وَقَوْعُ تِلْكَ الْحَالِ مِنَ الْإِنْسَانِ خَلْقٌ عَجِيبٌ، فَالْجُثَّةُ
الْقَائِمَةُ مِنْ لَحْمٍ وَبَدَنِ يَكْمُلُ أَمْرُهَا أَوْ يَنْقُصُ قَدْرُهَا بِالنَّظَرِ إِلَى بَضْعَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ مِنْهَا،
وَهُمَا: الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ، وَهَذَا تَرْكِيبٌ عَجِيبٌ بَدِيعٌ؛ فَإِنَّ الْجَارِي فِي حَالِ الْخَلْقِ: أَنْ يَكُونَ
الْأَكْبَرُ مُتَحَكِّمًا فِي الْأَصْغَرِ، وَقَلْبَ هَذَا فِي خِلْقَةِ أَحَدِنَا؛ فَأَصْغَرَاهُ مُتَحَكِّمَانِ فِيهِ، فَإِنَّ
تَمَامَ دِينِ الْإِنْسَانِ وَكَمَالَ عَقْلِهِ وَحُسْنَ حَالِهِ يَرْجِعَانِ إِلَى قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ مَعَ ضَالَةِ حَجْمِهِمَا
وَصِغَرِ قَدَرِهِمَا.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ إِذْ جَعَلَ الْإِنْسَانَ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ الْبَدِيعَةِ
الْعَجِيبَةِ الَّتِي رُدَّ فِيهَا أَمْرُهُ كُلُّهُ إِلَى قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ.

وَتَحْقِيقُ الْأَمْرِ: أَنَّ الْمَرْءَ يُرَدُّ فِي بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ إِلَى قَلْبِهِ، وَفِيهِ: حَدِيثُ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

قَالَ أَبُو تَيْمِيَّةَ الْحَفِيدُ: «الْقَلْبُ مَلِكُ الْبَدَنِ، وَالْأَعْضَاءُ جُنُودُهُ، فَإِذَا طَابَ الْمَلِكُ طَابَتْ جُنُودُهُ، وَإِذَا خُبِثَ الْمَلِكُ خُبِثَتْ جُنُودُهُ».

وإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَيْهِ حِجَابًا، فَالْقَلْبُ مَلِكُ بَدَنِكَ، وَلِسَانُكَ حَاجِبُهُ، فَهُوَ يَغْرِفُ مِنْهُ وَيَنْزِعُ عَنْهُ، فَإِذَا طَابَ الْمَلِكُ وَكَانَ صَالِحًا فَإِنَّ الْحَاجِبَ - الْوَزِيرَ دُونَهُ - يَكُونُ صَالِحًا طَيِّبًا، وَإِذَا خُبِثَ وَفَسَدَ ظَهَرَ الْخُبْثُ وَالْفَسَادُ عَلَى اللِّسَانِ وَبَقِيَّةِ الْأَرْكَانِ.



قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

وَالْعِلْمُ بِالْفَهْمِ وَبِالْمُذَاكِرَةِ وَالدَّرْسُ وَالْفِكْرَةُ وَالْمُنَاطَرَةُ



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

ذَكَرَ النَّازِمُ فِي هَذَا الْبَيْتِ خَمْسَةَ مَوَارِدَ مِنَ الْمَوَارِدِ الَّتِي تُوصِلُ الْعِلْمَ إِلَى النَّفْسِ،
وَتُذِيقُ الْقَلْبَ حَلَاوَتَهُ:

فَالْمَوْرِدُ الْأَوَّلُ: الْفَهْمُ؛ وَهُوَ: إِدْرَاكُ الْمَعَانِي الْمُرَادَةِ فِي الْكَلَامِ.

وَالنَّافِعُ مِنَ الْفَهْمِ هُوَ: الْمُتَلَقِّي عَنِ الرَّاسِخِ فِي الْعِلْمِ.

فَإِنَّ مَنْ رَسَخَ عِلْمُهُ صَارَتْ الْمَعَانِي الَّتِي يُبْدِيهَا صَحِيحَةً، فَانْتَفَعَ بِهَا مُتَلَقِّيُهَا، وَقَوِيَتْ
مَلَكَتُهُ فَهْمِهِ، وَإِذَا كَانَ مُزْعَزَعُ الْقَدَمِ فِي الْعِلْمِ، غَيْرَ مُتَمَكِّنٍ مِنْهُ بَدَتْ تِلْكَ الْمَعَانِي
مُشَوَّشَةً، فَتَلَبَّسُ فِي نَفْسِ الْمُتَلَقِّي وَتَوَرُّثُهُ عُسْرُ الْفَهْمِ.

وَالْمَوْرِدُ الثَّانِي: الْمُذَاكِرَةُ؛ وَهِيَ: مُرَاجَعَةُ مُتَلَقِّي الْعِلْمِ عِلْمَهُ مَعَ آخَرٍ، سُمِّيَتْ

(مُذَاكِرَةً) لِأَنَّهَا مُفَاعَلَةٌ بِالذِّكْرِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَصَاعِدًا، فَيَجْلِسُ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ وَيَتَجَادَبَانِ
الْقَوْلَ مُعِيدَيْنِ مَا سَبَقَ تَلْقَیْهِ عَنْ مُعَلِّمَهُمَا.

فَاسْمُ (الْمُذَاكِرَةِ) فِي كَلَامِ الْعَرَبِ يَقَعُ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَأَكْثَرَ.

وَالدَّارِجُ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ مِمَّا يَسْمُونَهُ (مُذَاكِرَةً) أَسْمُهُ: (مُطَالَعَةٌ)؛ فَإِنَّ الَّذِي يَنْظُرُ فِي

الْكِتَابِ وَحْدَهُ يُسَمَّى مُطَالِعًا، سِوَاءَ كَانَ مُتَحَفِّظًا أَمْ مُتَفَهِّمًا، وَأَسْمُ (الْمُذَاكِرَةِ) لَا يَكُونُ

إِلَّا بَيْنَ اثْنَيْنِ فَصَاعِدًا يَتَجَادَبَانِ ذِكْرَ الْعِلْمِ بَيْنَهُمَا.

وَالنَّافِعُ مِنَ الْمُذَاكِرَةِ هِيَ: الْوَاقِعَةُ مَعَ الْقَرِينِ الْجَادِّ، الطَّامِحِ إِلَى مَعَالِي الْأُمُورِ.

وَالْمَوْرِدُ الثَّالِثُ: الدَّرْسُ؛ وَهُوَ: تَكَرُّرُ الْعِلْمِ عَلَى النَّفْسِ، وَإِعَادَتُهُ عَلَيْهَا، فَإِنَّ أَسْمَ (الدَّرْسِ) مَاخُذٌ مِنَ الْعَوْدِ وَالتَّكَرُّارِ، فَإِعَادَةُ الْعِلْمِ بَعْدَ حِفْظِهِ أَوْ بَعْدَ فَهْمِهِ يُسَمَّى (دَرْسًا).

فَمَنْ جَلَسَ بَعْدَ الْفَجْرِ فَحَفِظَ هَذِهِ الْآيَاتِ حَتَّى أَحْكَمَهَا، فَلَمَّا أُرْسِلَ اللَّيْلُ سِتَارُهُ، وَبَزَغَتِ النُّجُومُ، وَهَذَا صَوْتُ النَّاسِ؛ قَامَ فَأَخَذَ يُكْرِّرُ هَذِهِ الْآيَاتِ، ففَعَلَهُ يُسَمَّى (دَرْسًا)، وَكَذَا لَوْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِمَفْهُومٍ تَلَقَّاهُ؛ كَأَنْ يَكُونَ قَرَأَ ذَلِكَ الْمَحْفُوظَ عَلَى شَيْخٍ بَيَّنَ لَهُ مَعَانِيَهُ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى دَارِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَعَادَ تَذَكَّرَ تِلْكَ الْمَعَانِيَ الَّتِي تَلَقَّاهَا وَأَمَرَهَا عَلَى نَفْسِهِ يُسَمَّى هَذَا (دَرْسًا).

وَالنَّافِعُ مِنَ الدَّرْسِ: هُوَ الْكَائِنُ فِي وَقْتِ النَّشَاطِ وَالْقُوَّةِ.

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَفَعَ بِدَرْسِهِ مُعِيدًا لَهُ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَخَيَّرَ أَوْقَاتَ نَشَاطِهِ وَقُوَّتِهِ.

وَالْمَوْرِدُ الرَّابِعُ: الْفِكْرَةُ؛ وَهِيَ: تَحْقِيقُ النَّظَرِ فِي مَا يُبْتَغَى مِنَ الْعِلْمِ، بِإِمْرَارِهِ عَلَى الْقَلْبِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَأَسْتِخْرَاجُ مَا تَحْتَ الْمَبْنَى مِنَ الْمَعْنَى.

فَإِنَّ مَبَانِيَ الْكَلَامِ خَزَائِنُ الْمَعَانِي؛ فَتَحْقِيقُ النَّظَرِ فِيهَا وَإِجَالَتُهُ يُسَمَّى (فِكْرًا)، بِأَنْ تَتَطَلَّبَ الْوُصُولَ إِلَى مَقْصُودٍ تُقَلِّبُ نَظْرَكَ فِيهِ حَتَّى تُدْرِكَ مَعْنَى تَلْتَمِسُهُ فِي مَا تُطْلِقُ الْفِكْرَ فِيهِ.

وَالنَّافِعُ مِنَ الْفِكْرِ فِي الْعِلْمِ: هُوَ مَا تَحَرَّكَ بِهِ الذَّهْنُ بَعْدَ تَمَامِ الْفَهْمِ وَاكْتِمَالِ آلَةِ الْعِلْمِ؛ فَالْفِكْرُ فِي الْعِلْمِ لِلْوُصُولِ إِلَى الْمَعَانِي الشَّرِيفَةِ مُحَلُّهُ فِي مَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ عُمْرٍ مُتَلَقِّيهِ، فَلَا يَحْسُنُ الْهُجُومُ عَلَيْهِ فِي الْمَبَادِي، أَوْ عِنْدَ الْمُتَوَسِّطِينَ، أَوْ عِنْدَ الْمُتَمَتِّهِينَ قَبْلَ أَمْتَلَائِهِمْ مِنَ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الْفِكْرَ فِي الْعِلْمِ لَا تَحْصُلُ مَنَفَعَتُهُ إِلَّا بَعْدَ تَمَامِ فَهْمِ مَعَانِيهِ، فَإِذَا تَمَّ فَهْمُ الْمَعَانِي، ثُمَّ اكْتَمَلَتْ آلَةُ الْعِلْمِ مِنْ تَلَقِّي فَنُونِهِ؛ كَانَ فِكْرُ الْمَرْءِ فِيهِ حِينَئِذٍ كَمَا لَا يُورِثُ كَمَا لَا، وَإِنْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ كَانَ خَبَالًا لَا يُورِثُ خَبَالًا.

فمُلتَمَسُ العلم لا ينبغي له أن يُجهدَ ذهنَه بالفكرِ في الوصولِ إلى المعاني قبلَ تمامِ فهمِهِ وأكتمالِ آتِهِ، لأنَّه يُشغِلُ نفسَه بما يشقُّ عليها؛ كَمَنْ يَحْمِلُ ثِقَلًا لَا يَقْدِرُ بَدَنُهُ عَلَى رَفْعِهِ، وَرَبَّمَا أوردَهُ المَهَالِكُ؛ فهو يُجْري خاطِرُهُ مُنْقَدِحًا في أمورٍ لَا يعي تمامَهَا.

فإنَّ ممَّا يسمعه المرءُ في تعليلِ الأحاديثِ - مثلاً - أشياءَ فكَرَ فيها المتكلِّمون بها فأرسلوها على عواهنها قبلَ تمامِ الفهمِ وأكتمالِ آلةِ العلمِ، فصَارَ تعليلُهم ضحكةً عندَ العارفينَ بالعلمِ، فإنِّي سمعتُ رجلاً يُعلِّلُ حديثًا في الصَّحيحِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنْفَسْتِ؟» - لَمَّا أُنْسَلَتْ مِنْ فِرَاشِهِ -، فَقَالَ: هَذَا الْحَدِيثُ لَهُ عِلَّةٌ، وَهِيَ أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ تَضَعْ إِحْدَاهُنَّ مَوْلُودًا، وَالنَّفَّاسُ دَمٌ يَكُونُ بَعْدَ وَلَادَةٍ.

وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي عُلِّلَ بِهِ مَعْنَى سَاقِطٌ؛ لِأَنَّ أَصْلَ (النَّفَّاسِ): حُصُولُ التَّنْفِيسِ، وَهُوَ لِلْمَرْأَةِ بِدَمٍ، فَيُسَمَّى الْحَيْضُ أَيْضًا (نَفَاسًا)، وَهُوَ الَّذِي أَرَادَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: «أَنْفَسْتِ؟».

وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي ذَكَرْتُ خَطُورَتَهُ صَارَ شَائِعًا فِي النَّاسِ فِي مَا فُتِنُوا بِهِ مِنْ دَعْوَى سَهُولَةِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَعْلُومَةِ؛ فَظَنُّوا أَنَّ سَهُولَةَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَعْلُومَةِ تُورِثُهُمْ قُدْرَةً عَلَى نَفُوذِ أَفْكَارِهِمْ فِي مَعَانِي الْعِلْمِ، وَأَنَّهُمْ يُدْرِكُونَ مِنْ حَقَائِقِهِ أَشْيَاءَ تَجْري بِهَا خَوَاطِرُهُمْ؛ كَالْمَسْمُوعِ الْيَوْمَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا يُنْسَبُ إِلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ مُحَضُّ جَرِيَانِ الْخَوَاطِرِ، وَرَبَّمَا أَشْتَمَلَ عَلَى مَعَانٍ فَاسِدَةٍ فِي الشَّرِيعَةِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ مُرِيدَ النَّجَاةِ عِنْدَ اللَّهِ، الرَّاعِبَ فِي حَصُولِ كِمَالِ الْعِلْمِ؛ يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ الْفِكْرَ فِي الْعِلْمِ مَرْتَبَةٌ تُدْرِكُ بَعْدَ تَمَامِ الْفَهْمِ وَأَكْتِمَالِ آلَةِ الْعِلْمِ.

وَالْمُورِدُ الْخَامِسُ: الْمُنَاطَرَةُ؛ وَهِيَ: الْبَحْثُ فِي الْعِلْمِ مَعَ غَيْرِهِ؛ لِنُصْرَةِ قَوْلِ دُونَ آخَرَ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ.

وَالنَّافِعُ مِنَ الْمُنَظَرَةِ: مَا كَانَ مَعَ ذِي عِلْمٍ لِإِرَادَةِ الْحَقِّ.

فَالْمُنَظَرَةُ النَّافِعَةُ تَجْمَعُ وَصَفَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: وَقُوعُهَا بَيْنَ مُتَّصِفَيْنِ بِالْعِلْمِ الْكَامِلِ؛ إِمَّا فِي نَفْسَيْهِمَا، وَإِمَّا فِي تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ

بَعَيْنِهَا.

وَالْآخَرُ: أَنْ يَكُونَ مُرَادُ كُلِّ مِنْهُمَا الْوُصُولُ إِلَى الْحَقِّ.



قال الناظم رحمه الله :

قُرْبَ إِنْسَانٍ يَنَالُ الحِفْظَا وَيُورِدُ النَّصَّ وَيُحْكِي اللَّفْظَا
 وَمَا لَهُ فِي غَيْرِهِ نَصِيبُ مِمَّا حَوَاهُ الْعَالِمُ الْأَدِيبُ
 وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَدِيدِ الحُبِّ لِلْعِلْمِ وَالذِّكْرِ بَلِيدِ القَلْبِ
 مُعْجَزٍ فِي الحِفْظِ وَالرَّوَايَةِ لَيْسَتْ لَهُ عَمَّنْ رَوَى حِكَايَةِ
 وَآخِرُ يُعْطَى بِلا أَجْتِهَادِ حِفْظًا لِمَا قَدْ جَاءَ فِي الإِسْنَادِ
 يُفِيدُهُ بِالقَلْبِ لَا بِنَاطِرِهِ لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَى قَمَاطِرِهِ



قال الشَّارِحُ وفقه الله :

ذكر الناظم في هذه الأبيات أنَّ النَّاسَ يتفاوتون في حظوظهم من الحفظ والفهم الَّذي ينالون به العلم.

فَتَجِدُ فِيهِمْ مَنْ تَكُونُ لَهُ أَهْلِيَّةٌ فِي الفهم وَقُدْرَةٌ عَلَيْهِ، فَهُوَ وَاعِيَةٌ دَرَاكٌ لِلْمَعَانِي. وَتَجِدُ مِنْهُمْ مَنْ يَتَقَاصَرُ عَنْ هَذِهِ الرُّتَبَةِ مِنَ الفهم، فَمَا لَهُ فِيهِ كَبِيرُ نَصِيبٍ، وَإِنْ كَانَ لَهُ حِظٌّ مِنَ الحِفْظِ.

وأشار الناظم إلى الثاني منهما بقوله:

قُرْبَ إِنْسَانٍ يَنَالُ الحِفْظَا وَيُورِدُ النَّصَّ وَيُحْكِي اللَّفْظَا
 وَمَا لَهُ فِي غَيْرِهِ نَصِيبُ مِمَّا حَوَاهُ الْعَالِمُ الْأَدِيبُ

فالمذكور في هَذَيْنِ البيتين بالنسبة إلى قوَّةِ الفهم هو ضعيفٌ لَا يُعَدُّ مِنْ أَرْبَابِهَا.

وَعُرِفَ مُقَابِلُهُ بِحَالِهِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ فِي النَّاسِ مَنْ يَضْعُفُ فَهْمُهُ، فَمُقَابِلُهُ مِنْهُمْ: مَنْ

يقوى فَهْمُهُ.

وتجدُ فيهم أيضًا بالنسبة للحفظ مَنْ يكونُ ضعيفَ الحفظِ مع محبَّته العلمَ ورغبته فيه.
وتجدُ منهم مَنْ هو قويُّ الحفظِ، مُتمكِّنٌ منه، سهلٌ عليه.
فالنَّاسُ متفاوتون في الحفظِ والفهمِ على درجاتٍ ومراتبٍ مُتباينةٍ.
وأشار النَّازِمُ إلى مراتبِ النَّاسِ في الحفظِ في قوله:

وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَدِيدِ الْحُبِّ لِلْعِلْمِ وَالذِّكْرِ بَلِيدِ الْقَلْبِ
مُعْجَزٍ فِي الْحِفْظِ وَالرَّوَايَةِ لَيْسَتْ لَهُ عَمَّنْ رَوَى حِكَايَهُ
وَأَخْرَ يُعْطَى بِلاَ أَجْتِهَادِ حِفْظًا لِمَا قَدْ جَاءَ فِي الْإِسْنَادِ
يُفِيدُهُ بِالْقَلْبِ لَا بِنَاطِرِهِ لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَى قَمَاطِرِهِ
فَالأَوَّلُ: كَلِيلُ الْحِفْظِ ضَعِيفُهُ.

والثَّانِي: قَوِيُّ الْحِفْظِ حَتَّى تَتَمَكَّنَ الْمُحْفُوظَاتُ فِي قَلْبِهِ دُونَ كَبِيرِ أَجْتِهَادٍ مِنْهُ؛ وَمِنْهُ:
حَالُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ؛ فَإِنَّهُ سُئِلَ: كَيْفَ تَحْفَظُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟، فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ
إِذَا أَشْتَهَيْتُ شَيْئًا حَفِظْتُهُ»؛ أَيُّ: إِذَا وُجِدَ فِي قَلْبِي مَحَبَّةٌ وَرَغْبَةٌ لَهُ وَجَدَ طَرِيقًا إِلَى قَلْبِي،
فَتَمَكَّنَ مِنْهُ وَرَسَخَ فِيهِ، فَصَارَ عِلْمُهُ حَاضِرًا بِقَلْبِهِ، فَهُوَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ
الْمُشَارِ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ: (لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَى قَمَاطِرِهِ)؛ فَالْقَمَاطِرُ: جَمْعُ قِمَاطِرٍ، وَهُوَ: وَعَاءٌ
تُحْفَظُ فِيهِ الْكُتُبُ، بِمَنْزِلَةِ الْحَقِيبَةِ فِي وَقْتِنَا.

فَالْحَافِظُ الْمَتَمَكِّنُ غَيْرُ مُفْتَقِرٍ إِلَى الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ فِي الْقَمَاطِرِ.

وَكَانَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ يُنْشِدُ بَيْتًا سَيَّارًا:

وَلَيْسَ عِلْمًا مَا حَوَى الْقِمَاطِرُ مَا الْعِلْمُ إِلَّا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ



قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

فَالْتَمِسِ الْعِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ وَالْعِلْمُ لَا يُحْصَلُ إِلَّا بِالْأَدَبِ



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

لَمَّا بَيَّنَّ النَّازِمُ أَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ خَمْسَةِ مَوَارِدٍ يُحْصَلُ بِهَا الْعِلْمُ؛ أَرْشَدَ إِلَى مَا تَنْبَغِي ملاحظته فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، فَقَالَ: (فَالْتَمِسِ الْعِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ)؛ أَيُّ: أَبْتَغِ الْعِلْمَ وَأَحْرِصْ عَلَى تَحْصِيلِهِ، سَالِكًا مَا يَجْمُلُ مِنَ الطُّرُقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَيْهِ. فَقَوْلُهُ: (وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ)؛ مَعْنَاهُ: أَسْلُكْ فِيهِ طَرِيقًا جَمِيلًا حَسَنًا، بَأَن تَأْتِيَهُ مِنْ وَجْهِهِ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنْهُ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي «تَعْظِيمِ الْعِلْمِ» وَ«خُلَاصَتِهِ» وَغَيْرِهِمَا بَيَانُ كَثِيرٍ مِنَ الْقَوْلِ الْمُتَعَلِّقِ بِمَا يَجْمُلُ فِي طَرِيقِ اخْتِذِ الْعِلْمِ، فَمَنْ سَلَكَهَا كَانَ أَخْذُهُ جَمِيلًا، وَمَنْ عَدَلَ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا أَضَرَّ بِنَفْسِهِ فِي الْعِلْمِ لَغَلَطِهِ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهِ.

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ مِنْ مَفَاتِيحِ حَيَاةِ الْعِلْمِ: سُلُوكُ الْأَدَبِ، وَالتَّزَامُ مُقْتَضَاهُ فِي النَّفْسِ وَالذِّمَنِ وَمَعَ الشَّيْخِ وَالزَّمِيلِ، فَقَالَ: (وَالْعِلْمُ لَا يُحْصَلُ إِلَّا بِالْأَدَبِ)، وَهُوَ فِي مَعْنَى قَوْلِ يُوسُفَ ابْنِ الْحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بِالْأَدَبِ تَفْهَمُ الْعِلْمَ». رَوَاهُ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي «أَقْصَاءِ الْعِلْمِ الْعَمَلِ».

وَالْجُمْلَةُ الْمَذْكُورَةُ لَهَا مُتَعَلِقَانِ:

أَحَدُهُمَا: الْهِبَةُ الْإِلَهِيَّةُ.

وَالْآخَرُ: الْمِنْحَةُ الْبَشَرِيَّةُ.

فَأَمَّا الْهِبَةُ الْإِلَهِيَّةُ: فَإِنَّ اللَّهَ يَهَبُ الْعِلْمَ لِمَنْ كَانَ مُتَأَدِّبًا، فَإِنَّ الْعِلْمَ مِيرَاثُ النَّبُوَّةِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَجْعَلُ مِنْ أَنْوَارِ النَّبُوَّةِ فِي قُلُوبِ قَلِيلِي الْأَدَبِ، وَلَوْ قُدِّرَ وجودُ شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ عِنْدَ قَلِيلٍ أَدَبٍ فَهُوَ لَيْسَ الْعِلْمُ الْمَمْدُوحَ شَرْعًا.

فَالْعِلْمُ الْمَمْدُوحُ شَرْعًا: هُوَ النَّافِعُ، الْمُقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ، الْحَامِلُ لِلْعَبْدِ عَلَى التَّزَامِ شَرِيعَتِهِ. وَأَمَّا الْمُنْحَةُ الْبَشَرِيَّةُ: فَإِنَّ الْمُعَلِّمِينَ يَتَعَاهَدُونَ الْمُتَأَدِّبِينَ؛ فَهُوَ يَبْذُلُ عِلْمَهُ لِلْمُؤَدَّبِ، وَيَمْنَعُ قَلِيلَ الْأَدَبِ مِنْهُ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ مِنَ الْمُعَلِّمِينَ يَعْلَمُ أَنَّ الْعِلْمَ خِزَانَةٌ، وَأَنَّهُ أَمِينٌ عَلَيْهَا، فَمِنْ صِدْقِ الْأَمَانَةِ أَنْ يَتَحَرَّى مَنْ لَهُ حَقٌّ فِي تِلْكَ الْخِزَانَةِ، وَلَا حَقَّ فِي الْعِلْمِ إِلَّا لِمَنْ تَأَدَّبَ بِآدَابِهِ، فَإِنَّ الَّذِينَ لَا يَتَأَدَّبُونَ بِآدَابِ الْعِلْمِ مَعَ اللَّهِ، وَمَعَ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَ أُمَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَمَعَ شُيُوخِهِمْ، وَمَعَ أَقْرَانِهِمْ، وَمَعَ مَجَالِسِ الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ؛ لَيْسَ لَهُمْ حَقٌّ فِي تِلْكَ الْخِزَانَةِ؛ فَإِنَّ تِلْكَ الْخِزَانَةَ فِيهَا الْعِلْمُ الْمُوروثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْأَمِينُ الصَّادِقُ لَا يَجْعَلُ تِلْكَ الْجَوَاهِرَ وَاللَّالِيَّ إِلَّا عِنْدَ مَنْ لَهُ حَقٌّ فِيهَا.

وَأُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ حَقٌّ هُمْ الْمُلْتَزِمُونَ بِشُرُوطِهَا مِنَ الْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْأَحْكَامِ الْمَرْعِيَّةِ، فَإِذَا وُجِدَتْ فِيهِمْ كَانَ حَقِيقًا بِحَامِلِ الْعِلْمِ أَنْ يَبْذُلَهُ لَهُمْ، وَإِذَا سُلِبَتْ مِنْهُمْ كَانَ حَقِيقًا بِصَاحِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنْهُمْ.

وَأَعْتَبِرْ هَذَا فِي أَخْبَارٍ مِنْ أَحْوَالٍ مَنْ مَضَى؛ فَإِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَأَصْحَابَهُ لَمَّا قَصَدُوا مِصْرَ لِسَمَاعِ الْحَدِيثِ عَلَى الشُّيُوخِ، وَصَاقَ بِهِمْ زَمَنُهُمْ عَنِ السَّمَاعِ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبِ الْقَعْنَبِيِّ؛ كَانَ يَأْتِيهِمْ بَعْدَ الْعِشَاءِ، فَيَقْرَأُ عَلَيْهِمْ كِتَابَ «الْمُوطَأِ» الَّذِي يَرْوِيهِ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ؛ لِأَنَّهُ رَأَاهُمْ أَهْلَ أَدَبٍ، يَتَحَرَّوْنَ الْعِلْمَ وَيَلْتَزِمُونَ شُرُوطَهُ، فَحَمَلَ عَلَى نَفْسِهِ فِي حَمْلِ الْعِلْمِ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَهُ وَهُمْ مِنْ أَهْلِهِ.

وَفِي أَخْبَارِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِنِّي لِأَحْرِمُ الرَّجُلَ الْفَائِدَةَ لِمَا أَرَى مِنْ حَالِ جَلِيسِهِ»، فَهُوَ يَلَاحِظُ أَنَّ مُلْتَمَسَ الْعِلْمِ لَهُ صُحْبَةٌ لَا تَصْلُحُ فِيهِ فَيَمْنَعُهُ الْعِلْمَ؛ لِأَنَّهُ يَخَافُ

أَنْ تُفْسِدَهُ تِلْكَ الصُّحْبَةُ فَيُجْعَلَ الْعِلْمُ عِنْدَ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ.



قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

الْأَدَبُ النَّافِعُ حُسْنُ الصَّمْتِ فِي كَثِيرِ الْقَوْلِ بَعْضُ الْمَقْتِ
فَكُنْ لِلْحُسْنِ الصَّمْتِ مَا حَيَّتَا مُقَارِنًا تُحَمَّدُ مَا بَقِيَّتَا



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

لَمَّا قَرَّرَ النَّازِمُ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْأَدَبِ شَرَعَ يَذْكُرُ أَنْوَاعًا مِنَ الْأَدَبِ وَوَجْهًا مِنْهُ، مُقَدِّمًا (حُسْنَ الصَّمْتِ)؛ أَي: الصَّمْتَ الْحَسَنَ بِالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ.

وَيَتَأَكَّدُ الصَّمْتُ إِذَا تَحَقَّقَتْ مَضَرَّةُ الْكَلَامِ، أَوْ لَمْ تَتَبَيَّنْ مَنَفَعَتُهُ وَلَا مَضَرَّتُهُ.

فَالْكَلَامُ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامُ:

أَحَدُهَا: كَلَامٌ بَيْنَ الْمَنَفَعَةِ.

وَتَانِيهَا: كَلَامٌ بَيْنَ الْمَضَرَّةِ.

وَتَالِثُهَا: كَلَامٌ لَمْ يَتَبَيَّنْ نَفْعُهُ مِنْ ضَرَرِهِ.

وَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ فِي الْقَسْمَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ بِالصَّمْتِ؛ لِمَا فِي «الصَّحِيحِينَ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»؛ فَالْكَلَامُ الْمَأْمُورُ بِهِ هُوَ مَا كَانَ خَيْرًا - أَيْ بَيْنَ الْمَنَفَعَةِ -، وَمَا عَدَاهُ - مِمَّا يَكُونُ بَيْنَ الْمَضَرَّةِ، أَوْ لَمْ تَتَحَقَّقْ مَنَفَعَتُهُ مِنْ مَضَرَّتِهِ - فَإِنَّ الْعَبْدَ مَأْمُورٌ بِالْإِمْسَاكِ عَنْهُ وَأَنْ يُخْزِنَ لِسَانَهُ وَيَحْفَظَهُ، مُمَثِّلًا مَا أُرْشِدَ إِلَيْهِ النَّازِمُ بِقَوْلِهِ:

فَكُنْ لِلْحُسْنِ الصَّمْتِ مَا حَيَّتَا مُقَارِنًا تُحَمَّدُ مَا بَقِيَّتَا

أَيُّ: كُنْ خَازِنًا لِللِّسَانِ، حَافِظًا لَهُ، مُمَسِّكًا عَمَّا لَا خَيْرَ فِيهِ مِنَ الْكَلَامِ، فَإِنَّكَ تَحْمَدُ عَاقِبَةَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيَبْقَى ذِكْرُكَ بِالْخَيْرِ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ مَا بَقِيَ خَيْرُكَ. وَهَذَا الْأَمْرُ هُوَ مِنْ أَكْثَرِ مَوَارِدِ الْعَطَبِ الَّتِي تَفْسُدُ بِهَا أَحْوَالُ الْخَلْقِ إِذَا أُرْسِلُوا أَلَسْتُهُمْ فِي مَا لَا يَنْفَعُهُمْ، أَوْ فِي مَا هُوَ بَيْنُ الضَّرَرِ، أَوْ مِمَّا لَا يَتَبَيَّنُ نَفْعُهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ هَذَا عَلَيْهِمْ بِفَسَادِ قُلُوبِهِمْ.

وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي غَيْرِ كِتَابٍ أَبْوَابًا مِنْ مُفْسِدَاتِ الْقُلُوبِ، فَلَهَجَ بِوَاحِدٍ مِنْهَا وَهُوَ: (كَثْرَةُ الْكَلَامِ)، فَإِنَّ مَنْ كَثَرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطُؤُهُ فَوَقَعَ فِيْمَا يَضُرُّ، أَوْ وَقَعَ فِيْمَا لَا يَتَبَيَّنُ مَنْفَعَتُهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَيَرْجِعُ ذَلِكَ عَلَيْهِ بِفَسَادِ قَلْبِهِ.

وَحَبْسُ اللِّسَانِ وَخَزْنُهُ مِنَ الرِّيَاضَاتِ النَّافِعَةِ فِي تَهْذِيبِ النَّفْسِ وَإِصْلَاحِ الْأَخْلَاقِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُعَوِّدَ أَحَدُنَا نَفْسَهُ خَزْنَ لِسَانِهِ بِأَنْ يَتَقَلَّلَ مِنَ الْكَلَامِ، وَإِذَا جَلَسَ فِي مَوْضِعٍ فِيهِ غَيْرُهُ مِمَّنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ أَمْسَكَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ، وَإِنْ كَانَ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْعِلْمِ أَكْثَرَ مِنْهُ، مِمَّنْ هُوَ فِي أَقْرَانِهِ، فَإِنَّ رِعَايَةَ هَذَا مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ الْعَبْدُ فِي صَلَاحِ قَلْبِهِ وَحُسْنِ دِينِهِ.

وَإِذَا كَثُرَ هَذَا الْمَرْءُ وَجَرِيَانُ لِسَانِهِ بَيْنَ النَّاسِ وَقَعَ فِي أَشْيَاءٍ تُفْسِدُ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ. وَفِي أَخْبَارِ مُورِّقِ الْعَجَلِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «جَاهَدْتُ نَفْسِي عَشْرَ سِنِينَ فِي تَعَلُّمِ الصَّمْتِ» أَه. وَوَجْهُ الْمُجَاهَدَةِ: أَنَّهُ تَوَجَّدَ عِنْدَهُ شَهْوَةُ الْكَلَامِ فَيَحْبِسُ لِسَانَهُ.

فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَرْتَاضَ رِيَاضَةَ حِفْظِ اللِّسَانِ فَاعْقِلْ هَذَا الْمَعْنَى، فَإِذَا أَشْتَاقَتْ نَفْسُكَ لِلْكَلامِ، وَارْتَفَعَتْ إِلَيْكَ الْأَبْصَارُ وَأَشَارَتْ إِلَيْكَ الْأَصَابِعُ فَأَلْجِمِ لِسَانَكَ مَا اسْتَطَعْتَ، إِمَّا بِالْإِمْسَاكِ عَنِ الْكَلَامِ تَارَةً، أَوْ بِالتَّقَلُّلِ مِنْهُ تَارَةً أُخْرَى، فَإِذَا أُلْجِئْتَ إِلَى الْحَدِيثِ فَأَقِلَّ الْكَلَامَ، فَإِنَّ قِلَّةَ الْكَلَامِ يَكْثُرُ بِهَا دِينُ الْمَرْءِ وَعَقْلُهُ، كَمَا أَنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ يَضْعِفُ بِهَا دِينُ الْمَرْءِ وَعَقْلُهُ، وَاعْتَبِرْ هَذَا فِي أَحْوَالِ النَّاسِ تَجِدُ صِدْقَهُ.

قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

وَأِنْ بَدَتْ بَيْنَ أَنْاسٍ مَسْأَلُهُ مَعْرُوفَةٌ فِي الْعِلْمِ أَوْ مُفْتَعَلُهُ
فَلَا تَكُنْ إِلَى الْجَوَابِ سَابِقًا حَتَّى تَرَى غَيْرَكَ فِيهِ نَاطِقًا
فَكَمْ رَأَيْتُ مِنْ عَجُولٍ سَابِقٍ مِنْ غَيْرِ فَهَمٍ بِالْخَطَاءِ نَاطِقٍ
أَزْرَى بِهِ ذَلِكَ فِي الْمَجَالِسِ بَيْنَ ذَوِي الْأَلْبَابِ وَالتَّنَافُسِ
الصَّمْتُ فَأَعْلَمُ بِكَ حَقًّا أَزَيْنُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتَقْنُ



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

ذَكَرَ النَّازِمُ أَنَّ مِنْ مَوَارِدِ الصَّمْتِ الْحَسَنِ: الْإِمْسَاكُ عَنِ الْكَلَامِ فِيمَا يَجْرِي ذِكْرُهُ مِنْ
مَسَائِلِ الْعِلْمِ، مِمَّا شَهَرَ مِنْهُ فِي الْمَسَائِلِ الْمَقَرَّرَةِ الْحَاصِلَةِ، أَوْ فِي الْمَسَائِلِ الْمُتَجَدِّدَةِ
النَّازِلَةِ.

فَإِنَّ الصَّمْتَ الْحَسَنَ: أَنْ يُمْسِكَ الْمَرْءُ عَنِ الْجَوَابِ فِيهِ حَتَّى يَرَى غَيْرَهُ مِمَّنْ هُمْ أَكْمَلُ
عِلْمًا، وَأَكْبَرُ سِنًّا، وَأَتَمُّ عَقْلًا قَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ، فَيَتَكَلَّمُ حِينَئِذٍ بِمِثْلِ كَلَامِهِمْ، وَيُجَابِي مَقَاهِمَ،
وَيُبْنِي عَلَى أَصُولِهِمْ، وَيُوسِّعُ النَّظَرَ فِي مَا قَرَّرُوهُ.

فَمِنْ حُسْنِ صَمْتِ أَحَدِنَا: أَلَّا يَزَاحِمَ أَهْلَ الْعِلْمِ الْقَائِمِينَ بِهِ فِي مَا هُمْ بِهِ أَوْلَى.
وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ لَمْ يَتَقَدَّمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَإِذَا تَكَلَّمُوا وَكَانَ قَدْ زَوَّرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ
بِمِثْلِ كَلَامِهِمْ تَكَلَّمَ حِينَئِذٍ بَعْدَ كَلَامِهِمْ، وَإِنْ زَوَّرَ فِي نَفْسِهِ خِلَافَ كَلَامِهِمْ أَمْسَكَ حِينَئِذٍ
عَنِ الْكَلَامِ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ لَهُ فِي دِينِهِ وَعَقْلِهِ.

فلو قُدِّرَ أَنَّ أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ جَرَى بَيْنَ النَّاسِ فَالْزَمِ الصَّمْتَ الْحَسَنَ؛ وَإِنْ كَانَ النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ مِنْكَ كَلِمَةً، فَإِذَا تَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْكَ أَحَدٌ فَتَكَلَّمْ وَأَحْتِجِجْ إِلَى كَلَامِكَ - نُصْرَةً لِلْحَقِّ وَتَقْوِيَةً لَهُ وَكَنتَ تَرِيدُ الْكَلَامَ بِمِثْلِ مَا تَكَلَّمُ بِهِ - فَتَكَلَّمْ بَعْدَهُ، وَإِنْ عَرَضَ لَكَ مِنَ الْمَعَانِي مَا تَرَى بِهِ أَنَّ الرَّاجِحَ عِنْدَكَ هُوَ خِلَافُ مَا قَرَّرَهُ وَكَانَ هُوَ مِنَ الْمَأْمُونِينَ فِي الْعِلْمِ، الْمَنْظُورِ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الْخَلْقِ فَلَا تُزَاحِمُهُ، وَالْزَمِ مَا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ، حَتَّى إِذَا أَحْتِجِجَ إِلَيْكَ فَحِينَئِذٍ قُمْ فِي هَذَا الْمَقَامِ.

فَإِنَّ مَنْ رَعَى هَذَا الْأَدَبَ مِنَ الْعِلْمِ فِي نَفْسِهِ حَفِظَ دِينَهُ وَعَقْلَهُ، وَمَنْ زَااحَمَ أَهْلَ الْعِلْمِ أَزْرَى عَلَى دِينِهِ وَعَقْلِهِ.

وَذَكَرَ النَّاطِمُ مِنْ مَزَالِقِ الْعَجَلَةِ فِي الْعِلْمِ وَالْمُسَابَقَةِ بِالْقَوْلِ فِيهِ الْوُقُوعَ فِي الْخَطِئِ الَّذِي يُزِرِّي بِصَاحِبِهِ عِنْدَ الْمُتَنَافِسِينَ فِي مَعَالِي الْأُمُورِ، فَإِنَّ الْمُسَارَعَةَ وَالْمُسَابَقَةَ إِلَى الْقَوْلِ تَجُرُّ إِلَى الْوُقُوعِ فِي الْخَطِئِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ رَزِيَّةً تَعِيبُ الْمُتَكَلِّمَ بِهَا.

وَإِذَا كَانَتْ الْحَالُ كَذَلِكَ فَالْأَمْرُ النَّافِعُ سَلُوكُهُ هُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِ الْمَصْنُفِ:

الصَّمْتُ فَاعْلَمْ بِكَ حَقًّا أَزِينَ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتَقَنٌ

فَالصَّمْتُ عِنْدَ بُدْوَ الْقَوْلِ فِي مَسَائِلِ الْعِلْمِ أَزِينَ بِأَهْلِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ عِلْمٌ مُتَقَنٌ - أَيُّ: عِلْمٌ رَاسِخٌ.



قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقُلْ إِذَا أَعْيَاكَ ذَاكَ الْأَمْرُ مَا لِي بِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ خَيْرُ
فَذَاكَ شَطْرُ الْعِلْمِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ كَذَلِكَ مَا زَالَتْ تَقُولُ الْحُكَمَاءُ



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ:

ذكر الناظم الجواب النَّافِعَ في المسائل التي يَعْزُبُ عِلْمُ أَحَدِنَا عَنْهَا، وَهُوَ قَوْلُ: (لَا أَدْرِي)، المُشَارِ إليه بقوله: (مَا لِي بِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ خَيْرُ)؛ فإذا سُئِلَ المرءُ عن شيءٍ لا يعلمه كان الجوابُ النَّافِعُ هو أنْ يصدَعَ بقول: (لَا أَدْرِي).
ولجلالة هذه الكلمة صارت نصف العلم، كما قال:

فَذَاكَ شَطْرُ الْعِلْمِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ كَذَلِكَ مَا زَالَتْ تَقُولُ الْحُكَمَاءُ

فَمِنَ الشَّائِعِ قَوْلُهُمْ: «(لَا أَدْرِي) نِصْفُ الْعِلْمِ»، وأقدم من أثرت عنه هذه الكلمة هو عامر بن شراحيل الشَّعْبِيّ، أحدُ التَّابِعِينَ. رواه الدَّارِمِيُّ وَغَيْرُهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.
نَعَمْ؛ وقع في كلام أبي عُمَرَ أَبْنِ عَبْدِ الْبَرِّ في «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ» وفي «الانْتِقَاءِ» أَنَّهُ قَالَ: (وَصَحَّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ: «(لَا أَدْرِي) نِصْفُ الْعِلْمِ»)، وهذه الكلمة لم تُوجَدْ مَرْوِيَّةً عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَا فِي أَيْدِينَا مِنَ التَّأْلِيفِ، فأخشى أن يكون وهماً.
فإنَّ صَحَّ أَنَّهَا رُوِيَتْ عَنْهُ فَأَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَقْدَمُ مِنَ الشَّعْبِيِّ، فهو صحابيٌّ وَالشَّعْبِيُّ تابعيٌّ، لكنَّ المرويَّ بإسناده في الكتب التي اتَّصَلَتْ بِنَا هُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ الشَّعْبِيِّ عِنْدَ الدَّارِمِيِّ وَغَيْرِهِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَوَجْهُ كَوْنِهَا نِصْفَ الْعِلْمِ: أَنَّ الْعِلْمَ مَقْسُومٌ بَيْنَ (أَدْرِي) وَ(لَا أَدْرِي)؛ فَأَحَدُهُمَا نِصْفُ

الآخر، ذكره يحيى بن آدم في ما رواه عنه ابن نصر في «تَعْظِيمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ».

فالعلم بين شيء يُدرى وشيء لا يُدرى، فالذي يُدرى يتكلم به داريه بما يعرفه، والذي لا يُدرى يُمسك عنه المسئول فيقول: (لا أدري).

وَمِنْ لَطِيفِ الْعِلْمِ: أَنَّ سَعِيدَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ - أَحَدَ عُلَمَاءِ أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ - كَانَ يَقُولُ: «لَا أَدْرِي لِمَ (لَا أَدْرِي) نِصْفُ الْعِلْمِ». رَوَاهُ عَنْهُ أَبُو زُرْعَةَ الدَّمَشَقِيُّ فِي «تَارِيخِهِ».

وَكَشَفَ مَا غَمُضَ عَلَيْهِ: هُوَ الْمَعْنَى الْمَتَقَدِّمُ الَّذِي ذَكَرَهُ يَحْيَى بْنُ آدَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَدْ صَارَ هَذَا الْأَصْلُ - (لَا أَدْرِي) - أَصْلًا رَاسَخًا فِي الْعِلْمِ عِنْدَ أَهْلِهِ؛ أَنَّ مَنْ سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ لَمْ يَعْلَمْهُ فَإِنَّ الْوَصِيَّةَ النَّافِعَةَ فِي حَقِّهِ أَنْ يَلْزَمَ قَوْلَ (لَا أَدْرِي)، حَتَّى صَارَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ يُوصِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِلِزُومِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

وقد أشرتُ إلى هذا المعنى في أبياتٍ؛ قلتُ فيها:

وَقَوْلُ (لَا أَعْلَمُ) عِنْدَ الْعُقَلَا	عُدَّ فِي الْعِلْمِ وَنِصْفًا جُعِلَا
وَفَقْدُهَا مِنَ اللِّسَانِ عَابُوا	مَقَاتِلُ الْمَرْءِ بِهِ تُصَابُ
وَيَنْبَغِي لِعَالِمٍ أَنْ يُورِثَا	أَصْحَابُهُ مَقَالَهُمَا مَا حَدَّثَا
لَأَنَّهَا رَافِعَةٌ وَكَمْ قَضَى	بِحُكْمِهَا مِنَ الْأَنَامِ مُرْتَضَى
وَغَيْرُهُ أَوْلَى بِهَا وَأَجْدَرُ	وَمَنْ يُضِيعُ رُشْدَهُ لَا يُنْصَرُ
وَأَنْفٌ مِنْ قَوْلِهَا رَقِيعُ	وَدِينُهُ فِي نَفْسِهِ وَضِيعُ
فَالْهَجُ بِهَا هُدَيْتَ مَا أَسْتَطَعْتَ	وَالْزَمَ لَهَا فَنِعْمَ مَا اتَّخَذْتَ



قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

إِيَّاكَ وَالْعُجْبَ بِفَضْلِ رَأْيِكَ وَأَحْذَرُ جَوَابَ الْقَوْلِ مِنْ خِطَابِكَ
كَمْ مِنْ جَوَابٍ أَعْقَبَ النَّدَامَةَ فَاعْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَةِ



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

حَذَّرَ النَّازِمُ فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ مِنْ بَلِيَّتَيْنِ تَكْتَفَانِ الْمُتَكَلِّمَ فِي الْعِلْمِ :
فَالْبَلِيَّةُ الْأُولَى : مُدَاخَلَةُ الْعُجْبِ النَّفْسِ ، وَتَسَلُّهُ إِلَيْهَا ، فَيَرَى الْمُتَكَلِّمُ فِي الْعِلْمِ لِنَفْسِهِ
عَلَى غَيْرِهِ فَضْلًا ، ثُمَّ يَطْلُبُ لَهَا قَدْرًا وَوَضْلًا .

وَالْعُجْبُ هُوَ : النَّظَرُ إِلَى النَّفْسِ بِعَيْنِ الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ .

فَتَجِدُ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الْعِلْمِ وَيُعَدُّ مِنْ أَهْلِهِ وَتَعْتَرِيهِ هَذِهِ الْبَلِيَّةُ ، فَيُعْجَبُ
بِنَفْسِهِ ، نَازِرًا إِلَيْهَا بِعَيْنِ الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ ، فَهُوَ يَرَى أَنَّ لَهُ مِنَ الْكَمَالِ مَا لَيْسَ لغيرِهِ ،
وَأَنَّ عِنْدَهُ مِنَ الْفَضْلِ تَحْصِيلًا وَبَيَانًا مَا لَيْسَ عِنْدَ سِوَاهُ ، فَيَزُهو بِنَفْسِهِ عَلَى الْخَلْقِ ، وَهِيَ مِنْ
أَعْظَمِ الْغَوَائِلِ الْمُفْسِدَةِ لِلْمَرْءِ فِي عِلْمٍ أَوْ غَيْرِهِ ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ مَأْمُورًا أَنْ يَنْظُرَ إِلَى نَفْسِهِ بِعَيْنِ
النَّقْصِ ، مُجْتَهِدًا فِي الْقِيَامِ بِحَقِّ اللَّهِ .

وَمِنْهُ : حَالُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قِيَامِهِ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ ، فَتَقُولُ لَهُ عَائِشَةُ : يَا
رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّ اللَّهَ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ! ، فيقول : « يَا عَائِشَةُ ؛ أَفَلَا أَكُونُ
عَبْدًا شَكُورًا » ؛ فَهُوَ لَا يَرَى أَنَّ مَا لَهُ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ رَبِّهِ شَيْئًا ، وَأَنَّ اللَّهَ حَقِيقٌ بِدَوَامِ
شُكْرِهِ ، وَأَنَّهُ مَهْمَا أَتَى مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَتَعْظِيمِهِ فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ أَعْظَمُ .

فَالْمَرْءُ مَأْمُورٌ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى نَفْسِهِ بِعَيْنِ الْإِزْرَاءِ وَالْعَيْبِ ، وَأَنْ يَقْمَعَ طُغْيَانَ الْعُجْبِ مِنْهَا ،

فإنَّه إذا أَسْتَوَى عَلَى قَلْبِ الْعَبْدِ أَفْسَدَهُ.

فَالْمَرْءُ إِذَا أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فِي عِبَادَةٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ غَيْرِهِمَا عَلِقَ بِقَلْبِهِ مَنْجَنِيْقُ رَبِّمَا جَرَّه إِلَى مَهَاوِي الرَّدَى، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْخَلَاصِ مِنْهُ إِلَّا بِمِلَاحِظَةِ أَنَّ النُّعْمَةَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا لَمْ تَكْتَسِبْهَا بِقَوَاكَ وَلَكِنَّ اللَّهَ هَدَاكَ، فَإِذَا أَعْجَبَكَ أَنَّكَ جَالِسٌ فِي حِلْقِ الْعِلْمِ، مَعْدُوْدٌ فِي طُلَّابِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَهُ الْفَضْلُ الْأَعْظَمُ عَلَيْكَ، فَهُوَ الَّذِي هَدَاكَ إِلَى ذَلِكَ، وَإِلَّا لَكُنْتَ كغَيْرِكَ مَمَّنْ تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بَعِيْنَ النَّقْصِ مَمَّنْ يُخَالِطُونَ الْمُعَاصِي أَوْ يُضَيِّعُونَ أَوْقَاتَهُمْ فِيمَا لَا يَنْفَعُهُمْ.

وَالْبَلِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: أَبْتَدَأَ الْقَوْلَ بِشَيْءٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ أَحَدٌ قَبْلَكَ، فَيَكُونُ إِنْشَاؤُهُ مِنْ مُبْتَكِرَاتِ خِيَالِكَ، وَمُبْتَدَعَاتِ أَفْكَارِكَ.

وَمَحَلُّ الذَّمِّ: فِيمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَشْهُورِ الَّذِي تَكَلَّمَ فِيهِ أَهْلُ الْعِلْمِ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ.

فَالْعَدُولُ عَمَّا قَالُوا، وَإِبْدَاءُ سِوَاهِ مِمَّا يُعَابُ بِهِ الْمَرْءُ؛ لِأَنَّ الْعَادَةَ الْجَارِيَةَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الَّذِي أَبْدَاهُ غَيْرَ مَبْنِيٍّ عَلَى أَصْلٍ وَثِيقٍ، وَلَا مَسْبُوقٍ بِعَالِمٍ عَتِيقٍ، فَهُوَ يَسْتَحْسِنُ شَيْئًا ثُمَّ يَتَكَلَّمُ بِهِ، فَهِيَ وَجَدَتْ تِلْكَ الْحَالُ مِنَ الْعَبْدِ فَإِنَّهَا بَلِيَّةٌ.

[مَسْأَلَةٌ:] لَوْ قَالَ إِنْسَانٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ: الصَّلَاةُ هِيَ: الْحُنُوُّ وَالْعَطْفُ، وَنَحْنُ نَحْضَرُ الدُّرُوسَ، وَنَقْرَأُ فِي الْكُتُبِ: (الصَّلَاةُ هِيَ: الدُّعَاءُ)، فَهِيَ أَنْتَ عِنْدَكَ هَذِهِ الْبَلِيَّةُ!
[الْجَوَابُ:] نَحْنُ نُحِبُّ النَّاصِحَ الصَّادِقَ الَّذِي يَنْصَحُنَا، فَإِنَّا بَشَرٌ غَيْرُ مُعْصُومِينَ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ الَّذِي ذَكَرْتَهُ مُتَّصِفٌ بِوَصْفَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلٍ وَثِيقٍ؛ فَإِنَّ أَسْمَ (الصَّلَاةِ) فِي كَلَامِ الْعَرَبِ يَقَعُ عَلَى هَذَا.
وَالْآخَرُ: أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ الَّذِي ذَكَرْتَهُ لَكَ قَدْ سَبَقَتْ بِهِ مِنْ مُحَقِّقِينَ لِلْعِلْمِ، مِنْهُمْ: السُّهَيْلِيُّ، وَأَبْنُ الْقَيْمِ، وَأَبْنُ هِشَامٍ، وَالذَّمَنْهَوْرِيُّ فِي آخَرِينَ.

وقد زَيْفَ أَبْنُ الْقِيَمِ دَعَا أَنْ (الصَّلَاةُ هِيَ: الدُّعَاءُ) فِي «بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ» مِنْ أَرْبَعَةِ وَجُوهِ.

فَكُونُكَ لَا تَعْلَمُ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ الَّذِي سَمِعْتَهُ قَوْلٌ جَدِيدٌ فِي الْعِلْمِ، وَإِنَّمَا هُوَ جَدِيدٌ عَلَيْكَ، أَوْ جَدِيدٌ عَلَى زَمَانِ أَهْلِ عِلْمٍ شَهَرَ عِنْدَهُمْ قَوْلٌ حَتَّى غَلَبَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْقَوْلُ.

فَالْمَذْمُومُ الْمَمْقُوتُ هُوَ: الَّذِي لَا يُبْنَى عَلَى أَصْلٍ وَثِيقٍ وَلَا يَرْجِعُ إِلَى عِلْمٍ عَتِيقٍ. ثُمَّ مَحَلُّ هَذَا الذَّمِّ: فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ تَقْرِيرُ أَصُولِ الدِّينِ وَبَيَانُ أَحْكَامِهِ مِمَّا تَتَابَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، دُونَ مَا بُنِيَ عَلَى أَصُولِ الْفَهْمِ وَالْإِدْرَاكِ الَّتِي جَرَى عَلَيْهَا أَهْلُ الْعِلْمِ. فَمِثْلًا: لَوْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنَّ مِنْ أَنْوَاعِ عِلْمِ الْحَدِيثِ نَوْعٌ (الْمَقْرُونِ)؛ وَهُوَ: أَنْ يُذْكَرَ فِي الْإِسْنَادِ اثْنَانِ فَأَكْثَرُ؛ كَأَنْ يَقُولَ مُسْلِمٌ: (حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ، وَيَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ، وَقُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ؛ جَمِيعًا عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ) إِلَى تَمَامِهِ، فَالْثَّلَاثَةُ الْأَوَائِلُ تُسَمَّى رَوَايَتُهُمْ (مَقْرُونًا)، وَهَذَا النَّوعُ لَهُ وَقُوعٌ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ، وَلَهُ مَنَفَعَةٌ فِي عِلْمِهِمْ، فَمِنْ مَنَافِعِهِ أَنَّ هَذَا يُسَمَّى (مُتَابَعَةً)، فَلَانٌ وَفَلَانٌ وَفَلَانٌ رَوَى الْحَدِيثَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَنَافِعِهِ.

فَحِينَئِذٍ زِيَادَةُ هَذَا النَّوعِ لَيْسَ مَمْنُوعًا مِنْهَا؛ بَلْ مَأْذُونٌ بِهَا مِنْ وَجُوهِ كَثِيرَةٍ؛ أَيْسَرُهَا: أَنَّ أَوَّلَ مَنْ صَنَّفَ وَعَدَّدَ أَنْوَاعَ عِلْمِ الْحَدِيثِ مِمَّنْ صَنَّفَ فِي مِصْطَلَحِ الْحَدِيثِ هُوَ أَبْنُ الصَّلَاحِ، فَذَكَرَ أَنْوَاعًا، وَزَادَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَيْهِ أَنْوَاعًا، فَزَادَ الْعِرَاقِيُّ، ثُمَّ زَادَ أَبْنُ حَجْرٍ، ثُمَّ زَادَ السُّيُوطِيُّ حَتَّى بَلَغَهَا أَكْثَرُ مِنْ تِسْعِينَ نَوْعًا.

فَالْأَصْلُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي هَذَا أَنَّهُ مَحَلٌّ لِلزِّيَادَةِ، وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُحْسِنَ الْمُتَكَلِّمُ فِي الْعِلْمِ مَوَارِدَ الْفَهْمِ مِنْ أَصُولِهِ الَّتِي يُقَرِّرُهَا أَهْلُهُ حَتَّى يَعْرِفَ مَا يَجْرِي فِيهِ الْقَوْلُ وَمَا لَا يَجْرِي فِيهِ الْقَوْلُ.

وما كان ممنوعاً من القول فيه فالسَّلامة فيه أمثال ما ذكره النَّازِم بقوله: **(فَاغْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَةِ)**؛ فَسَلَامَةُ دِينِ الْإِنْسَانِ أَنْ يُمَثِّلَ الصَّمْتَ مُبْتَغِياً سَلَامَةً دِينَهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَعَرَضَهُ عِنْدَ الْخَلْقِ، عَلَى أَنَّ مَنْ نَبَّلَ فِي الْعِلْمِ يُبْتَلَى بِمَنْ لَمْ يَصِلْ إِلَى مَرْتَبَةِ النَّبْلِ فِيهِ مِمَّنْ يُزَيَّفُ أَقْوَالاً صَحِيحَةً فِي كُلِّ قَرْنٍ وَزَمَانٍ، وَلَكِنَّ طَرِيقَ إِيصَالِ الْخَيْرِ إِلَيْهِ لَيْسَ بِمُلا جَجَتِهِ وَمُجَادَلَتِهِ بِالْبَاطِلِ، وَإِنَّمَا بِنَصَبِ الْحَقِّ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ مَا مِنْ مَسْأَلَةٍ يَسْتَغْرِبُهَا سَامِعُهَا أَذْكَرُهَا إِلَّا وَأَذْكَرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ قَالَ بِهَا.

فَهَذِهِ الْمَسَائِلُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا وَأَمْثَالُهَا مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ مَسَائِلُ جَدِيدَةٍ؛ مَا مِنْ مَسْأَلَةٍ إِلَّا وَفِيهَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ تَكَلَّمَ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي يَسْلَمُ بِهِ دِينُ الْإِنْسَانِ وَيَحْصُلُ بِهِ النِّفْعُ لِلْخَلْقِ.

فَإِنَّهُ لَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْ جَمْعِ الْعِلْمِ أَنْ يُنْهَكَ الْمَرْءُ قَلْبَهُ وَدِينَهُ فِي مُرَاغَمَةِ النَّاسِ وَمُجَادَلَتِهِمْ وَمُجَادَلَتِهِمْ، وَإِنَّمَا مَقْصُودُ صَاحِبِ الْعِلْمِ الصَّادِقِ أَنْ يُوصِلَهُ الْعِلْمُ إِلَى اللَّهِ، وَيَكُونُ هُوَ مُوَصَّلاً لِلْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ، فَمَتَى كَانَتْ هَذِهِ نِيَّتُهُ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْمَعَارِفِ وَلَمْ يُشْغَلْهُ بِالْخَلْقِ.

وما أحسن قول ابنِ عَوْنٍ: «ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ اللَّهِ دَوَاءٌ»، وَقَالَ مَكْحُولُ الشَّامِيُّ: «ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ اللَّهِ شِفَاءٌ».

فاشْتَغَلُوا بِالدَّوَاءِ وَالشِّفَاءِ، وَأَحْذَرُوا مِنَ الدَّاءِ.



قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

الْعِلْمُ بِحَرْ مُنْتَهَاهُ يَبْعُدُ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ إِلَيْهِ يُقْصَدُ
وَلَيْسَ كُلُّ الْعِلْمِ قَدْ حَوِيَتْهُ أَجَلٌ وَلَا الْعُشْرُ وَلَوْ أَحْصَيْتُهُ
وَمَا بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْهُ أَكْثَرُ مِمَّا عَلِمْتَ وَالْجَوَادُ يَعْثُرُ



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

ذكر النّازم ممّا يُستعان به في تحصيل المطلوب المأمول معرفته ممّا يُسهّل بلوغ الأرب إدراك هذه الحقائق المذكورة في هذه الأبيات الثلاثة، فكل بيت منها يُشيد معنى سامقاً ذا بال في العلم.

فأولها: معرفة مُلتَمِسِ العلم أنّ العلم واسع لا مُنتهى له، كما قال النّازم:

الْعِلْمُ بِحَرْ مُنْتَهَاهُ يَبْعُدُ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ إِلَيْهِ يُقْصَدُ

والثاني: معرفة مُلتَمِسِ العلم أنّه مهما حَصَلَ منه فلن يجمعه كلّهُ، ولا عُشرهُ، ولو أجتهد في إحصائه؛ فإنّ القوى البشريّة تتناقص عن هذا.

وثالثها: معرفة مُلتَمِسِ العلم أنّ ما بقي وفضّل من العلم وراء ما أدركه أكثر وأعظم، وهي حال النقص التي طُبِعَ عليها الإنسان، فالجواد مهما كان قوياً يعرض له عثارٌ يسقط

به.

فملتَمِسُ العلم مهما أبتغى منه مُجتهداً فإنّه يبقى وراء ما أدرك من العلم علومٌ كثيرةٌ.



قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

فَكُنْ لِمَا عُلِّمَتْهُ مُسْتَفْهِمًا إِنَّ كُنْتَ لَا تَفْهَمُ مِنْهُ الْكَلِمَا
الْقَوْلُ قَوْلَانِ فَقَوْلُ تَعْلُمُهُ وَآخِرُ تَسْمَعُهُ فَتَجْهَلُهُ
وَكُلُّ قَوْلٍ فَلَهُ جَوَابُ يَجْمَعُهُ الْبَاطِلُ وَالصَّوَابُ
وَلِلْكَلامِ أَوَّلٌ وَآخِرُ فَأَفْهَمُهُمَا وَالذَّهْنُ مِنْكَ حَاضِرُ



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

ذكر النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْإِرْشَادِ النَّافِعِ لِمَلْتَمِسِ الْعِلْمِ: أَنْ يَطْلُبَ فَهْمَ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْهُ، وَإِذَا عَسُرَ عَلَيْهِ فَهْمُ شَيْءٍ مِنْ مَعَانِيهِ أَجْتَهِدَ فِي تَفْهَمِهِ وَسَأَلَ عَنْهُ؛ لِأَنَّ الْأَقْوَالَ الَّتِي تُذَكِّرُ لَكَ فِي الْعِلْمِ هِيَ بِالنِّسْبَةِ لَكَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: قَوْلُ تَسْمَعُهُ فَتَعْلُمُهُ وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ.

وَالْآخَرُ: قَوْلُ تَسْمَعُهُ فَتَجْهَلُهُ وَيَخْفَى عَلَيْكَ.

فَالأَوَّلُ إِذَا وَصَلَ إِلَى قَلْبِكَ أَسْتَقَرَّ فِيهِ، فَإِنَّكَ إِذَا فَهِمْتَ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْعِلْمِ وَوَعَاهَ قَلْبُكَ وَجَدَ لَهُ مَرْبَعًا وَمَحَلًّا فِيهِ.

وَأَمَّا مَا تَسْمَعُهُ فَتَجْهَلُهُ وَيَخْفَى عَلَيْكَ فَإِنَّكَ تَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الْإِسْتِفْهَامِ وَالسُّؤَالِ حَتَّى تُدْرِكَ مَعْنَاهُ، فَيَسْتَقَرَّ فِي قَلْبِكَ.

فَإِذَا عَسُرَ عَلَيْكَ فَهْمُ شَيْءٍ فَاسْتَعِدْ تَفْهَمَهُ؛ إِمَّا بِتَكَرُّرِ النَّظَرِ مِنْكَ فِي سَمَاعِ كَلَامِ مُعَلِّمِكَ، أَوْ فِي التَّمَاثُلِ مِنْهُ إِعَادَةِ بَيَانِ مَا سَمِعْتَهُ مِنْهُ وَلَمْ تَفْهَمْهُ.

وَأَيَّاكَ وَإِهْمَالَ فَهْمِ مَا لَمْ تَفْهَمْهُ؛ فَإِنَّ تَرْكَ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ دُونَ فَهْمِ يُوْرِثُ آفَتَيْنِ:

الأولى: ثَقُلَ الْفَهْمُ؛ فَإِنَّكَ إِذَا تَرَكْتَ شَيْئًا وَثَانِيًا وَثَالِثًا تَبَلَّدَ ذِهْنُكَ.

والأخرى: تَفَوَيْتُ الْعِلْمَ؛ فَإِنَّكَ إِذَا تَرَكْتَ شَيْئًا وَثَانِيًا وَآخَرَ فَاتَّكَ أَشْيَاءُ مِنَ الْعِلْمِ لَمْ تُحَسِّنْ مَعْرِفَتَهَا.

مَعَ مَا يُقَارَنُ هَاتَيْنِ الْآفَتَيْنِ مِنْ عِلَلٍ أُخْرَى؛ كَوُقُوعِ الشُّبُهَاتِ، وَكَثْرَةِ الْإِعْتِرَاضَاتِ؛ مِمَّا يُوجِبُ الْإِعْتِنَاءَ بِحُسْنِ التَّفَهُّمِ.

فتارة: تَسْتَعِيدُ كَلَامَ مُعَلِّمِكَ مِمَّا يُحْفَظُ صَوْتِيًّا، فَتُكْرِّرُهُ حَتَّى يَقَرَّ الْمَعْنَى فِي قَلْبِكَ.

وتارة: تُذَكِّرُ بِهِ صَاحِبًا لَكَ، فَرُبَّمَا يَذْكُرُ لَكَ مَا عَزُبَ عَنْهُ فَهْمُكَ.

وتارة: تَسْتَعِيدُ - بِأَدَبٍ - مِنْ مُعَلِّمِكَ فَهْمَ مَا لَمْ تَفْهَمْهُ، وَلَا تَتْرِكُ شَيْئًا تَسْمَعُهُ مِنَ الْعِلْمِ دُونَ فَهْمٍ؛ لِمَا يُورِثُهُ مِنْ نَقْصٍ سَبَقَ ذِكْرُهُ وَبَيَانُ وَجْهِهِ.

ثُمَّ ذَكَرَ النَّازِظُ أَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ جَوَابٌ، فَمُرَادُهُ بِ(الْقَوْلِ): السُّؤَالُ؛ بِدَلَالَةِ مُقَابَلَتِهِ بِالْجَوَابِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:

وَكُلُّ قَوْلٍ فَلَهُ جَوَابٌ يَجْمَعُهُ الْبَاطِلُ وَالصَّوَابُ

فالجواب له جهتان:

إحداهما: الْجَوَابُ الصَّحِيحُ؛ الْمَدْلُولُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: (الصَّوَابُ).

والأخرى: الْجَوَابُ الْخَطَأُ؛ الْمَدْلُولُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: (الْبَاطِلُ).

وَتَحْقِيقُ الْحُكْمِ عَلَى الْجَوَابِ بِإِحْدَى الْجِهَتَيْنِ مُنَاطٌ بِمُوَافَقَةِ الْأَدْلَةِ وَمَتَابَعَةِ الْأَجَلَّةِ، فِرْعَايَةُ هَذَا يُوقِفُ الْعَبْدَ عَلَى جَلِيَّةِ الْأَمْرِ فِي الْحُكْمِ عَلَى جَوَابٍ بِأَنَّهُ خَطَأٌ أَوْ صَوَابٌ، لَا بِمَجَرَّدِ الذَّوْقِ، أَوْ الْوَجْدِ، أَوْ الْخَاطِرِ، أَوْ مَا تَعَارَفَ عَلَيْهِ النَّاسُ أَوْ مَا أَعْتَادُوهُ فِي بَلَدٍ، فَمَثَلُ هَذِهِ الْمَعَايِيرِ لَيْسَتْ مِيزَانًا صَحِيحًا فِي الْحُكْمِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَجْوِبَةِ بِأَنَّهُ جَوَابٌ صَحِيحٌ أَوْ جَوَابٌ خَطَأٌ.

وهذه القاعدة تختص ببعض الكلام في العلم، وهو: مَا وَقَعَ جَوَابًا عَلَى سُؤَالٍ.

ثم ذكر قاعدةً عامَّةً فيه، فقال:

وَلِلَّكَلَامِ أَوَّلٌ وَآخِرٌ فَافْهَمُهُمَا وَالذَّهْنُ مِنْكَ حَاضِرٌ

والمقصود: أن كلَّ كلامٍ فلهُ مبتدأٌ وله مُنتهى، وله سِباقٌ وله لحاقٌ، وله إفرادٌ وله سياقٌ.

فكمالُ فهمِهِ يكونُ برعايةِ مواقِعِهِ، فتعتبرُ أوَّلُ الكلامِ وآخِرُهُ، وسِباقُهُ ولِحاقُهُ، وإفراذه وسياقه؛ فيوقِفُكَ ذَلِكَ على الفهمِ الصَّحيحِ له، فإن أخذتَ أوَّلَهُ وتركتَ آخرَهُ، أو أخذتَ سِباقَهُ وتركتَ لحاقَهُ، أو أكتفيتَ بمفردٍ دونَ النَّظرِ في تركيبِ سياقٍ؛ أوقعَكَ ذَلِكَ في ردِّ كلامٍ حقٍّ، ودفعَكَ إلى الزُّورِ والباطلِ في العلمِ، وهي حالٌ كثيرٌ من النَّاسِ الَّذِينَ يُبادِرُونَ إلى تزييفِ حقٍّ لأنَّهم ينظرونَ إلى أوَّلِ الكلامِ دونَ آخرِهِ، أو ينظرونَ إلى سِباقِهِ دونَ لحاقِهِ، أو ينظرونَ إلى إفراذه دونَ تركيبِ سياقِهِ، فيقعُونَ في الغلطِ على العلمِ وأهله.

فمَنْ أرادَ أن يَسْلَمَ له دينه وعِلْمُهُ وعقلُهُ لاحظَ هذا في مواقِعِهِ من الكلامِ، فإنَّه يوقِفُهُ على المعانيِ الصَّحيحةِ ويدفعُ عنه دَعْوَى الزُّورِ الَّتِي يدَّعيها مَنْ يدَّعيها على المتكلِّمينَ في العلمِ.

ولا يمكنُ حصولُ تلكِ الحالِ إلَّا بأن تكونَ حاضرَ الذَّهنِ حينَ ذَلِكَ، والمرادُ بـ(حضورِ الذَّهنِ): إقبالُ القلبِ على المَعْنَى المُرادِ فَهْمُهُ، فإنَّكَ إذا زاغَ ذِهنُكَ مُدَّةً وحضرَ مُدَّةً أوقعَكَ في الغلطِ.

وأذكرُ من وقائعِ الأحوالِ: أن أحداً نَسَبَ إليَّ أقولَ: إنَّ (هُوَ) من أسماءِ اللهِ!، وذكرَ أنِّي قرَّرتُ هذا في جامعِ الرَّاجِحِي بـ(شُبْرَا)، وأنَّه كانَ أحدَ الحاضرينَ، فلمَّا ذُكِرَتْ هَذِهِ الدَّعْوَى لي ضحكْتُ وذكرْتُ هَذِهِ الأبياتَ.

فإنَّني كنتُ أقرِّرُ الفرقَ بين الاسمِ المفردِ لله، والاسمِ المضافِ؛ فالاسمُ المفردُ: هو

الَّذِي يَأْتِي وَاحِدًا؛ مَثَلُ: (الله).

والاسمُ المضافُ: هو الَّذِي يَأْتِي مَجْمُوعًا مَعَ غَيْرِهِ؛ مَثَلُ: (رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَمَالِكُ الْمَلِكِ).

وَذَكَرْتُ أَنَّ ابْنَ الْقِيَمِ ذَكَرَ أَنَّ الْاسْمَ الْمُضَافَ لَا يُفْصَلُ أَحَدُ طَرَفَيْهِ عَنِ الْآخَرِ بِمَنْزِلَةِ عَدَمِ فَضْلِ حُرُوفِ الْاسْمِ الْمَفْرَدِ، فَلَا يَصَحُّ أَنْ تَقُولَ فِي اسْمِ (الْقَابِضِ الْبَاسِطِ): أَنَّ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ (الْقَابِضُ)، أَوْ أَنَّ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ (الْبَاسِطُ)؛ بَلِ الْاسْمُ حِينَئِذٍ هُوَ (الْقَابِضُ الْبَاسِطُ)، فَيَمْتَنِعُ الْفَصْلُ بَيْنَهُمَا كَمَا يَمْتَنِعُ الْفَصْلُ بَيْنَ حُرُوفِ اسْمِ (الله)، فَلَا تَقُولُ: (أ) اسْمٌ، وَلَا (الْأَم) اسْمٌ، وَلَا (ه) اسْمٌ، فَسَمِعَ هُوَ: (ه) اسْمٌ، فَقَالَ: إِنَّ فَلَانًا يَذْكُرُ أَنَّ (هُوَ) مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ ذَهَنَهُ حِينَئِذٍ لَمْ يَكُنْ حَاضِرًا، وَإِنَّمَا كَانَ شَارِدًا، فَسَمِعَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ فَظَنَّ أَنَّ فِيهَا تَقْرِيرًا لَكُونِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ (هُوَ) مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَالْعَاقِلُ يَلْتَمِسُ الْعِذْرَ لِلْمَتَعَلِّمِينَ، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا لَا يُسْتَغْرَبُ مِنْهُ؛ بَلِ لَا يُسْتَغْرَبُ مِمَّنْ يَرِيدُ بَكَ السُّوءَ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ جُبِلَتْ عَلَيْهِ خَلِيقَةُ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَتَنَافَسُونَ وَيَتَصَارِعُونَ وَيُرِيدُونَ الْجَاهَ وَالرَّئَاسَةَ وَالزَّعَامَةَ وَيَبْتَغِي بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ خَطَأَهُ لِإِذْلَالِهِ وَإِنْزَالِهِ عَنْ رُتْبَةٍ بَلَّغَهَا.

فَالْعَاقِلُ إِذَا رَأَى هَذَا فِي النَّاسِ عَامَلَهُمْ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَعَقَلَ أَنَّ هَذِهِ حَالُ بَشَرِيَّةٍ، فَالْمُتَرَفِّعُونَ عَنِ الْبَشَرِيَّةِ، الْمُزَكَّوْنَ أَنْفُسَهُمْ بِمَا يُطَهِّرُهَا لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى مِثْلِ هَذَا، وَيُرُونَ أَنَّ صُدُورَ هَذَا مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ زَلَّاتٌ يَنْبَغِي إِفْهَامُهُمْ فِيهَا الْقَوْلَ الصَّوَابَ.

وَالشَّاهِدُ مِنَ الْحِكَايَةِ: أَنَّ مَا أَرَشَدَ إِلَيْهِ مِنْ كَوْنِ حَصُولِ تِلْكَ الْحَالِ لَا يُمَكِّنُ إِلَّا مَعَ حَضُورِ الذَّهْنِ، وَأَمَّا مَعَ شُرُودِهِ فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لِلْمَرَّةِ ذَلِكَ.



قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

لَا تَدْفَعِ الْقَوْلَ وَلَا تَرُدَّهُ حَتَّى يُؤَدِّيَكَ إِلَى مَا بَعْدَهُ
فَرَبَّمَا أَعْيَا ذَوِي الْفَضَائِلِ جَوَابُ مَا يُلْقَى مِنَ الْمَسَائِلِ
فَيُمْسِكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِهِ عِنْدَ اغْتِرَاضِ الشَّكِّ فِي صَوَابِهِ



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

لَمَّا ذَكَرَ النَّازِمُ فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ مَا يُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْكَلَامِ حَذَرَ مِنْ آفَةٍ تَعْرِضُ لِمَنْ أَسْتَغْلَقَ عَلَيْهِ فَهْمُ شَيْءٍ مِنْهُ، وَهِيَ الْمُبَادَرَةُ إِلَى دَفْعِهِ وَرَدِّهِ، فَمِنْ النَّاسِ مَنْ إِذَا أَسْتَغْلَقَ عَلَيْهِ فَهْمُ شَيْءٍ لَمْ يُدْرِكْهُ بَادِرَ إِلَى رَدِّهِ وَدَفْعِهِ.

وَالْوَاقِعِي مِنَ السَّقُوطِ فِي هَذِهِ الْآفَةِ: هُوَ مِلَا حِظَةً مَا يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ الْكَلَامِ، فَرَبَّمَا سَمِعْتَ كَلَامًا عَامًّا يَفْتَقِرُ إِلَى التَّخْصِيسِ، أَوْ كَلَامًا مُطْلَقًا يَحْتَاجُ إِلَى التَّقْيِيدِ فَبَادَرْتَ إِلَى إِنْكَارِهِ قَبْلَ ظَهْوَرِ تَمَامِهِ، وَهُوَ الْمُعِينُ عَلَى فَهْمِهِ وَإِفْهَامِهِ؛ كَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون]، فَهَذِهِ الْآيَةُ لَا يَتِمُّ مَعْنَاهَا إِلَّا بِقَرْنِهَا بِالْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا، فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون]، فَمَنْ يُقَرِّرُ مَعْنَى الْوَيْلِ لِلْمُصَلِّينَ بِإِطْلَاقٍ مُبْطِلٍ، وَمَعْنَى يُقَرِّرُ مَعْنَى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [٤] إِذَا كَانُوا عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [٥] [الماعون] كَانَ مُحِقًّا فِيمَا قَرَّرَهُ.

فَإِنْ أَعْيَا السَّامِعَ فَهْمُ كَلَامٍ وَتَطَلَّعَتْ نَفْسُهُ إِلَى رَدِّهِ وَدَفْعِهِ وَإِبْطَالِهِ حَسَنَ بِهِ أَنْ يَرُدَّ

بعضه على بعض، قبل الهجوم على إنكاره وتزييفه؛ اقتداءً بمسالك أهل العلم فيما هم عليه من أجوبة مسائل الخلق في ما يحتاجون إليه من الحق.
فإن أهل العلم لا يُبادرون بجواب استفتاءات المُستفتين حتى يُتِمَّ المستفتي كلامه، كما قال:

فَرُبَّمَا أَعْيَا ذَوِي الْفَضَائِلِ جَوَابُ مَا يُلْقَى مِنَ الْمَسَائِلِ
فَيُمْسِكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِهِ عِنْدَ اعْتِرَاضِ الشَّكِّ فِي صَوَابِهِ

فمن حال كمال المفتين إذا عرّضت عليهم فتوى أنهم لا يُبادرون إلى الجواب فيها حتى يتبين لهم تمام القول من المستفتي، ثم يُحييونه، فتلك الحال التي تصلح بها خلق الناس في الفتوى هي الحال التي تصلح بها حائهم في فهم العلم، فلا يكمل لهم الفهم ولا يتم لهم إدراك معانيه إلا باستتمام مبانيه، فإذا صارت وافيةً تبين لهم المعنى.



قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

وَلَوْ يَكُونُ الْقَوْلُ عِنْدَ النَّاسِ مِنْ فَضَّةٍ بَيْضًا بِلَا أَلْتَبَاسِ
إِذَا كَانَ الصَّمْتُ مِنْ عَيْنِ فَافْهَمْ هَذَاكَ اللَّهُ آدَابَ الطَّلَبِ



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

ذكر النّازمُ في هذين البيتين ما يُقَوِّي وازع الصّمت في النّفس، ويدعوها إلى الإمساك عن كثير من القول، وهما معنى حكمة سيّارة: (إِذَا كَانَ الْكَلَامُ مِنْ فَضَّةٍ؛ فَالْسُّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ).

والكلام الذي يكون فضّة هو: ما لا يتبيّن نفعه من ضرره، أمّا بيّن النّفع فإنّه من خالص الذهب، كما أنّ بيّن الضرر شواظ من اللّهب.

فالكلام المراد إخراجه له ثلاثة أقسام:

أحدها: كَلَامٌ بَيّنُ النّفعِ؛ وهذا مِنْ خَالِصِ الذّهبِ.

وثانيها: كَلَامٌ بَيّنُ الضّررِ؛ وهذا شِواظٌ مِنَ اللّهبِ.

وثالثها: كَلَامٌ لا يتبيّن نفعه من ضرره؛ فهو الذي يُعَدَلُ بالفضّة، ويكون السُّكُوتُ حينئذٍ من ذهبٍ، فإنّ العبد مأمورٌ بقول الخير أو الصّمت عمّا عداه.

والحكمة المذكورة - (إِذَا كَانَ الْكَلَامُ مِنْ فَضَّةٍ؛ فَالْسُّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ) - مأثورة عن جماعة من القدماء؛ منهم: نبيّ الله سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلُقْمَانُ الْحَكِيمُ - الرَّجُلُ الصّالح.

ثمَّ ختم الناظم بالتأكيد على فَهْم ما ذكر في هذه المنظومة من الآداب فقال: **(فَأَفْهَمُ هَذَاكَ اللَّهُ آدَابَ الظَّلَبِ)**؛ داعيًا إلى حُسْن تَفْهَمِ هذه الآدابِ، فَإِنَّ فَهْمَهَا يَدْعُو إِلَى الْعَمَلِ بها، كما أَنَّ عَدَمَ فَهْمِهَا يَحُولُ دُونَ الْعَمَلِ بِهَا. وَقَرَنَ الْأَمْرَ بِالدُّعَاءِ تَرْغِيًّا فِيهَا، وَتَحْيِيًّا لَهَا إِلَى النُّفُوسِ؛ لِيَحْرُصُوا عَلَيْهَا، وَيَمْتَثِلُوا مُقْتَضَاهَا.



قَالَ النَّازِمُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

أَنْبِيَاؤُهَا مَعَ الزِّيَادَاتِ الَّتِي حَبَّرْتُهَا بِأَرْبَعِينَ عُدَّتِ



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

خَتَمَ جَامِعُ هَذِهِ النُّبْذَةِ بِهَذَا الْبَيْتِ مِنْ زِيَادَاتِهِ، الْمُبَيِّنِ عِدَدَ آيَاتِ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ، وَأَنَّهَا أَرْبَعُونَ بَيْتًا؛ لِي مِنْهَا خَمْسَةٌ؛ أَرْبَعَةٌ فِي أَوَّلِهَا، وَوَاحِدٌ فِي آخِرِهَا، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ أَصْلُ الْمَنْظُومَةِ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: (حَبَّرْتُهَا)؛ أَي: زَيَّيْتُهَا بِزِيَادَةِ الْحَبْرِ فِيهَا، فَإِنَّ التَّحْبِيرَ هُوَ التَّرْيِينُ.

وَمِنْ تَرْيِينِ الْخَطِّ: تَسْوِيدُ حَبْرِهِ.

فَإِنَّ الْحَبْرَ إِذَا كَانَ قَوِيًّا بَانَ الْمَكْتُوبُ وَظَهَرَ، كَمَا يَبْدُو ذَلِكَ جَلِيًّا إِذَا قَارَنْتَ الْآيَاتَ الَّتِي زِيدَتْ بِبَقِيَّةِ الْآيَاتِ، وَهِيَ مُحَبَّرَةٌ فِي خَطِّهَا، وَغَيْرُهَا مِنْ أَصْلِ الْمَنْظُومَةِ مُحَبَّرَةٌ فِي مَعَانِيهَا النَّافِعَةِ.

فَهَذِهِ الْمَنْظُومَةُ هِيَ مِنْ أَحْسَنِ مَا نُظِمَ فِي آدَابِ الطَّلَبِ مِمَّا هُوَ وَجِيزٌ؛ كَمَا ذَكَرَهُ أَبُو عَمَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ».

فَحَقِيقُ بِنَا جَمِيعًا أَنْ نَحْرِصَ عَلَى حِفْظِ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ أَوْ تَكَرُّارِهَا حَتَّى تَرَسَخَ مَعَانِيهَا فِي نَفُوسِنَا، وَأَنْ نُحْسِنَ تَفْهَمَ تِلْكَ الْحَقَائِقِ ثُمَّ نَمَثِّلَهَا بِالْعَمَلِ.

فَإِنَّ بَابَ الْآدَابِ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْعَجَبُ الْعُجَابُ، فَضَيَّعَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَمَتِّسِينَ إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، فَحَرَّمُوا الْعِلْمَ بِسَبَبِ تَضْيِيعِ الْأَدَبِ، فَمَنْ ضَيَّعَ الْأَدَبَ حُرِمَ الْعِلْمُ، وَمَنْ أَلْتَزَمَ الْأَدَبَ فَهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وبهذا البيان يتم بيان معاني هذه المنظومة على ما يوافق ويناسب المقام.

تَمَّ الشَّرْحُ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ
لَيْلَةَ الْخَمِيسِ الْخَامِسِ مِنْ شَهْرِ الْحَرَمِ
سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ بَعْدَ الْأَرْبَعِمِائَةِ وَالْأَلْفِ
فِي مَسْجِدِ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ بِمَدِينَةِ الرِّيَاضِ



فَوَائِد

Handwriting practice lines for the word فَوَائِد.

فَوَائِد

A series of horizontal dotted lines for writing, spanning the width of the page.

فَوَائِد

A series of horizontal dotted lines for writing, spanning the width of the page.

فَوَائِد

A series of horizontal dotted lines for writing, spanning the width of the page.

فَوَائِد

Handwriting practice lines for the word فَوَائِد (Fawa'id).

فَوَائِد

Blank lined paper for writing notes.

فَوَائِد

Handwriting practice lines for the word فَوَائِد.

فَوَائِد

Handwriting practice lines for the word فَوَائِد.